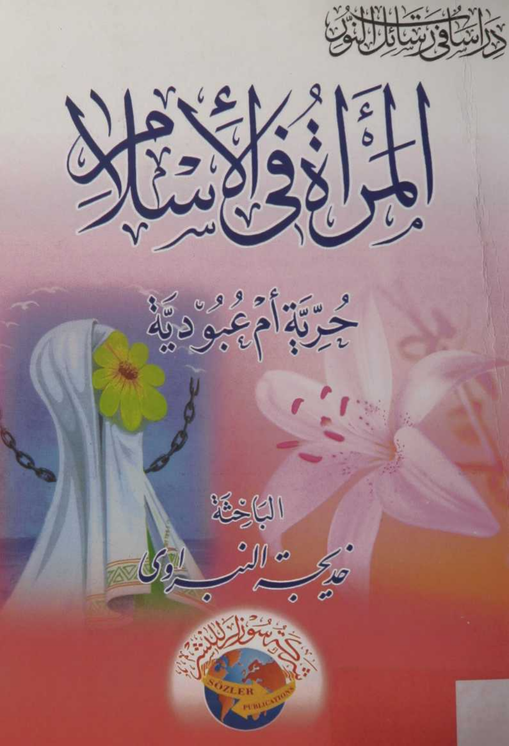

دراسات في رسائل النور
المرأة في الإسلام
حرية أم عبودية
الباحثة
خديجة النبراوي
شركة سوزلر للنشر
SÖZLER
PUBLICATIONS


المرأة في الإسلام
حُرِّيَّة أم عُبُودِيَّة


بسم الله الرحمن الرحيم



الباحثة

خديجة النبراوي

- الترقيم الدولي : 977-5323-21-5
- رقــم الإيداع : ٩٩/٧/٧٤
- الطبعة الثانية : (٢٠٠٤)

- النـــاشـــــر : شركة سوزلر للنشر
- العـــنـــوان : ٣٠ شارع جعفر الصادق ـ الحي السابع ـ مدينة نصر ـ القاهرة جمهورية مصر العربية

تليفــــون : ٢٦٠٢٩٣٨ (٢٠٢) +

تليفاكـــس : ٢٦٣٠٥٣١ (٢٠٢) +

30 Gafar EL-Sadek St., 7th Nasr City

Cairo – Egypt.

Tel. : + 202 2602938

Telefax : + 202 2630531

http : // www.sozler.com.tr



تمهيد

كثيراً ما تقام مؤتمرات، وتعقد ندوات ، وترفع شعارات ، للمطالبة بمساواة المرأة بالرجل. فأتساءل بيني وبين نفسي : تُرى في أي شيء بالضبط تريد المرأة مساواتها بالرجل : هل في الحقوق فقط أم في الحقوق والتبعات الملقاة على عاتقه ؟

وأتعجب بيني وبين نفسي، لأنه لو انكشف الغطاء، واستضاءت البصائر بنور الله، لعرفت النساء أنهن يطالبن بما يشقيهن، ويبحثن عن متاعب، هن في غنى عنها، ولقنعت كل منهن بدورها الحقيقي في الحياة، لأنه أخف وطأة بكثير، من الدور الذي فرضه الله على الرجال.

فعندما تُقام الموازين الحقيقية في الحياة، ويعرف كلٌ دوره في إطار شريعة الله الحكيمة، ومنهاجه القويم، ومبادئه السامية النبيلة، لاستقامت الأمور كما أراد الله لها الاستقامة، ولرضيت النساء بدورهن العظيم، كما رسمه الله لهن، وأرسى قواعده الرسول الأمين، ولعرفن أن الإسلام أعطاهن من الحقوق ما يعتبر ثورة اجتماعية بكل المقاييس، وعلى مدى العصور والأجيال، إلى قيام الساعة. ولعرفن : أن هذا الدين القيم قد حرر المرأة من ربقة العبودية لغير الله، وأخذ بيدها إلى مدارج الرقي والنور، لتتذوق لأول مرة في التاريخ معنى الحرية الحقيقية، القائمة على دعائم العدل الإلهي. حيث نالت المرأة بعد عصور طويلة من الظلم والمهانة كرامتها، وحقها في التملك، واتخاذ قرارها بنفسها في تقرير مصيرها. سواء أمور الزواج أو الطلاق أو إنجاب الأبناء ورضاعهم وفطامهم .. حتى خدمتها لزوجها أطلق لها الإسلام الحرية في تقرير تلك المسألة : فلو كان غنياً وجب عليه أن يوفر لها خادمة أو أكثر حسب إمكانياته ومسئولياته، وإن كان فقيراً ولا يقدر على ذلك، كانت خدمتها له تطوعاً وصدقة، تنال بها أجرها من ربها.

أهناك حرية أعظم من تلك الحرية المتدفقة من ينابيع الإسلام الفياضة؟!
أهناك مساواة تحلم بها امرأة أكثر من المساواة التى حققتها لها شريعة الإسلام ؟

ولو أرادت النساء إنصاف أنفسهن حقا، لكانت المؤتمرات التى تعقد من أجلهن يكون هدفها المناداة بحقوق المرأة كما جاءت فى شرع الله، وبذلك يتحقق لهن أسمى معانى الحياة التى يتطلعن إليها، وعشن فى ظل شجرة وارفة الظلال، أصلها ثابت وفروعها فى السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، فتعرف النساء رغد الحياة وهناءها.

أما إذا اختفت الموازين الحقيقية فى الحياة، ونسى كل من المرأة والرجل دوره الإيمانى، كما أرسته شريعة الإسلام الخالدة، فهنا تختلط الأمور، وتتوه المعانى السامية، فى خضم الحياة المتلاطمة أمواجها، ويكاد يغرق الجميع فى طوفان المادية الشرسة هجماتها، بعدما سعوا سعيا حثيثا إلى تذوق ويلاتها، المتخفية تحت سراب خادع. وهذا ما حدث فعلا، حيث تنقل لنا الصحف أخبارا عجيبة، عن دولة تعتبر نفسها الدولة العظمى، فى تحقيق الحرية والمساواة بين البشر : فنسمع عن مطالبة الرجل بالنفقة، فى حالة طلاقه من امرأته الثرية، لأنه أضير من هذا الطلاق ..* وتحكم له المحاكم فعلا بنفقة، قد تصل إلى آلاف الدولارات فى الشهر .

فأين ذلك من الإسلام الذى حقق للمرأة الكرامة والعزة، وألزم الرجل بالإنفاق عليها، مهما كانت زوجته غنية ؟ هل هذه هى المساواة التى تسعى المرأة المسلمة إليها ؟ إن كان ذلك فهى تسير بلا شك إلى حتفها معصوبة العينين. ولا سبيل إلى نجاتها إلا بالاعتصام بحبل الله المتين، وسنة رسوله الحبيب، الذى أرسله الله رحمة للعالمين، لأنه يخرجها من الظلمات إلى النور، ويرحمها بذلك من شرور أنفسها وسيئات أعمالها.

وإننى بالأصالة عن نفسى، وبالنيابة عن النساء المسلمات المؤمنات القانتات التائبات العابدات : أحمد الله غاية الحمد أنه أعزنا بالإسلام، وأنار بصيرتنا

---

* رسالة من امريكا، تكتبها مها عبد الفتاح فى جريدة أخبار اليوم

بنور الإيمان، وحفظنا بشرعه الحكيم، بسياج متين من العزة والكرامة، لأنه أعطانا من الحقوق ما يحسدنا عليه الرجال، الذين لا يعرفون معنى الرجولة الحقة، والتزاماتها وتبعاتها، التى تنوء السماوات والأرض والجبال بحملها.

وعلى النساء اللاتى يتزعمن حركات تحرير المرأة، والمناداة بمساواتها بالرجل، فعليهن أن يحددن بالضبط المساواة بمن : هل بالرجال الذين لا يعرفون الله، ولا يعرفون أعباء الرسالة الإسلامية ؟ أم بالرجال الذين صدقوا الله ما عاهدوه، وانتشروا فى ربوع الأرض يجاهدون بأموالهم وأنفسهم، ويتحملون أشد أنواع المخاطر لإعلاء كلمة الحق والعدل وكل معانى الحياة السامية ؟

فإن كانت المساواة بالنوع الأول، فالعدل يقول : إن هؤلاء الرجال هم الذين يحق لهم المساواة بالمرأة المسلمة، وخاصة فى مكانتها التى رفعها الله إليها. و إن كانت المساواة بالنوع الثانى، فلتعرف النساء أنهن يطلبن ما هو فوق طاقتهن .. ومن رحمة الله وعدله فى شرعه، أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولهذا فقد رحم الله المرأة. ولم يفرض عليها السعى فى طلب الرزق. أو الجهاد فى سبيل الله، أو صلوات الجماعة فى المسجد كل فرض، أو كل جمعة، فهذا بلا شك فوق طاقتها، وليس بوسعها القيام بكل هذا، مع ما ينتابها من ظروف صحية متنوعة .. ولكنه اختارها لوظيفة لا تقل عن كل ذلك أهمية وهو صقل الإنسان مادياً ومعنوياً.

أما المساواة فى حق التملك وحق التعليم، وجميع الحقوق المدنية، فلم يحرمها الإسلام من ذلك، بل منحها أكثر منه، حيث ساوى بينها وبين الرجل فيما هو أقدس من كل تلك الحقوق، ألا وهو حق العبادة والرقى الروحى فى مدارج الإيمان، والمساواة فى الجزاء والحساب : { من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون } . (النحل ٩٧)

فلك الحمد يا إلهى على ما أنعمت وتفضلت، ولك الحمد على شرعك الحكيم، الذى حرر المرأة من عبودية الشرك، ومن عبودية الذل والظلم والهوان،

الذى فرض عليها دهرا من الزمان. وأستغفرك يا ربى على جهل العباد، الذين ينهلوا من نبع الإسلام ما يبدد ظلمات حياتهم، كما أستغفرك يا ربى على كل من يحاول أن ينال من الإسلام، ويلصق به التهم الباطلة، فيما يخص مكانة المــــرأة. ل يعرفوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاهد فى الله حق جهاده ليعلى تلك المكان ويزيل ما علق بها من أدران الجاهلية والظلم. وواصل ذلك الجهاد حـــتى الرمق الأخير من حياته الشريفة، حيث ظل يوصى بالنساء خيرا، حتى فى أحرج لحظــات يمكن أن يمر بها الإنسان، وهى لحظة الموت.

فالصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله يا من أكرمنا الله ببعثتــك المباركة .. وإننى إذ أكتب ذلك البحث، فإنما أستلهم روحك الطـــاهرة، لأمحو الباطل، وأحق الحق الذى جئت به، وجاهدت فى سبيله جهاد الأبطال الأبرار، أولى العزم من الرسل والأنبياء.

فاللهم تقبل منا واجعله خطوة على طريق الحق والخير والنور.

{ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه } (فاطر ١٠)

الفصل الأول
دور الإسلام فى تحرير المرأة

أهمية المرأة فى الشريعة الإسلامية :

أتقدم بهذا البحث من واقع اعتزازى بالإسلام ، الذى أعـــزنى أولا بالانتساب إلى شريعة الحق والعزة والكرامة ، { ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون } (الروم ٣٠)

وأعزنى ثانيا بأن حرر وجودى كإنسانة من العبودية لغير الله جل شـــأنه، فتعاليت بانتسابى إلى نور الله المبين وعزته الأبدية الخالدة :

{ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون} (المنافقون ٨)

وأعزنى ثالثا بأن حررنى كأنثى من أغلال الذل والظلم والقهر، الذى خضعت لـــه الإناث من جنسى قرونا طويلة من الدهر، حتى صارت الأنثـــى رمـــزا للمهانـــة والاستعباد فى كل صورها.

{وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشره به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون} (النحل ٥٨، ٥٩)

ومازلت فى أعماق نفسى أشعر بأجراس الحرية، تدق آذان البشرية مـــع آيات الوحى المباركات، تعلن للعالم اجمع تحرر الإنسانية من ذكر وأنثى من جميـــع صور العبودية، وتأخذ بيدها فى تشريع منظم ودقيق إلى معانى من الحرية والعـــدل والمساواة تتردد أصداؤه عبر الأجيال، ويفوح أريجه عطرا جذابا، يثلج صدور ذوى العقول والألباب، وينير طريقهم عندما تـــزداد عـــثرات الفســـاد، واضطـــراب المجتمعات.

{من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزنيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} . (النحل ٩٧)

وإذا كان قد زاد اللغط والنقاش والجدال، حول مكانة المرأة فى الإسلام فى العصر الحديث، فإن ذلك راجع بلا شك إلى اختلال موازين الحياة وجهل الناس (وخاصة النساء منهن) بشريعة الإسلام. وصدق من قال :

نعيب زماننا والعيب فينا .. وما لزماننا عيب سوانا

فلو استضاءت بصائر النساء وعقولهن بنور الإسلام، وتثقفن من ينابيع وحيه وعظمة مناهله العذبة، كما تثقفت النساء الأوليات فى عصر الوحى وما بعده، لانتفى ذلك الجدل حول حقوق المرأة، ومساواتها بالنسبة للرجل، ولعرفت المرأة مكانتها الحقيقية فى الحياة :

- فيكفيها فخرا أن سيدنا آدم عندما كان بمفرده فى الوجود، لم يكن يعرف للحياة طعما، رغم أنه كان فى الجنة، ويتذوق معنى القرب والمعية مع الله، ولكنه اشتاق إلى أنس المرأة المعنوى، ومشاركتها له فى هذا الوجود.
- ويكفيها فخرا أن لها اليد الطولى فى إمداد البشرية بمعين لا ينضب من الذرية، أى أنه لم تكن الحياة لتعمر، ويصير لها هذا الاتساع الرهيب، والحضارات المتنوعة، لولا وجودها أصلا، الذى اختصها الله بشرف القيام به مشاركة مع آدم.
- ويكفيها فخرا أن الله جعل نبيا من أنبيائه، هو المسيح عيسى بن مريم، تنفرد بإنجابه امرأة، اصطفاها الله وطهرها، واصطفاها على نساء العالمين، وفاقت فى مكانتها كثيرا من الرجال، حتى إن هؤلاء الرجال قدسوها، ورفعوها منزلة قد تؤدى بهم إلى الشرك بالله.
- ويكفيها فخرا أن الحج وهو من أركان الإسلام الخمسة، ومن قام به إيمانا واحتسابا دخل الجنة، وهو أعظم العبادات مشقة وتكلفة، يقتفى فيه الرجال سلوك امرأة، عرفت ربها حق المعرفة. وتزوجت رسوله وخليله سيدنا

إبراهيم، وأنجبت رسولا كان صادق الوعد هو ابنه إسماعيل، ومن سلالته الحبيب المصطفى، محمد صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين .. إنها السيدة هاجر التي سعت سعيا حثيثا بين الصفا والمروة، بحثا عن قطرة ماء تنقذ بها حياة ابنها. جهادا لتنفيذ أمر ربها فى عمارة الكون، وتحقيق التنمية، حتى لو كانت البداية من العدم، وكانت هى فى ميدان الجهاد بمفردها، تضرب المثل للبشرية عموما، ولبنات جنسها خاصة، أن تحقيق التقدم للأمة يحتاج إلى عزم النفوس المخلصة، ومثابرتها نحو هدفها، لا فرق فى ذلك بين الرجل والمرأة.

ويكفيها فخرا أن الإسلام شرع لها من الحقوق، ما جعلها تطاول به عنان السماء، وتتذوق نسمات الحرية العذبة الغالية، وهذا ما جعل الناس يدخلون فى دين الله أفواجا .. وبعدما ساد الإسلام معظم أرجاء العالم، وسادت قوانينه وشرائعه على تلك الأرجاء، وأصبحت عرفا سائدا، وارتوت منه النساء عزة الكرامة والحرية التى أخرجتهن من عصور الظلمات والاستبداد. نجد أعداء الإسلام اليوم يوجهون له الطعنات بعدما ضعف المسلمون، وتبلبلت عقولهم، وتشتتت أفكارهم، عن معانى دينهم السامية، نجدهم يوصمون الإسلام بأنه أزرى بمكانة المرأة.

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾. (الكهف ٥)

إنهم يفترون على الله الكذب، ويشجعهم على ذلك جهل المسلمين بدينهم وخاصة النساء. فلو عرفت النساء دينهن حق المعرفة، لوقفن كالجبال الراسيات الشامخات، فى مواجهة عواصف الكذب، وادعاءات الحضارة الغربية الحديثة وافتراءاتها، ولعرفن أن الله أعزهن بدين كريم لنفوسهن، ورسول أمين عليهن، حيث حررهن من كل عبودية الجاهلية وظلمها. ويسجدون لله شكرا طوال أعمارهن، مرددات تسبيح الملائكة، بما يليق بجلال الله ونعمه السابغة : "سبحانك ما عرفناك حق معرفتك. سبحانك ما عبدناك حق عبادتك".

ولكى نعرف كيف حرر الإسلام المرأة حقا، بكل ما تعنيه تلك الكلمة من معانى، فلابد أن نلقى الضوء على مكانة المرأة المتدنية، قبل ظهور الإسلام، وكيف حررت الشريعة السمحاء المرأة المسلمة منذ ولادها، فأحاطت مولدها بالبهجة والسرور، بعدما كانت تقابل باليأس والقنوط، وضاعفت الشريعة الأجر والثواب لمن يحسن تربية الأنثى، ليكون لمقدمها ميزة نسبية، تحقق التوازن فى نفوس البشرية، فى مواجهة قدوم الذكر، الذى استقر حبه فى القلوب.

كما حرر الإسلام المرأة فى شبابها، وجعل لها الحرية فى طلب العلم. والحرية فى التعبير عن رأيها، وحريتها فى اختيار شريك حياها، وتقرير مصيرها بالخلع إذا استحالت العشرة معه. وجعل لها الحرية فى إدارة ممتلكاها، وفى خدمة زوجها، وفى أداء عباداها، وصلة أرحامها، وفى تنظيم حملها، وفى رضاع أبنائها وفطامهم. ثم كرم مكانتها كأم أكثر من الأب.

أبعد ذلك حرية ؟ أبعد ذلك مكانة يمكن أن تصل إليها المرأة ؟ إنها بلا شك منزلة يحسدها عليها الرجل.

ولبيان مزيد من أهمية المرأة فى الشريعة الإسلامية، سوف نعرض فى فصل خاص نظرة عالم جليل وهو الإمام النورسى لحو المرأة، حيث يبين أهميتها فى الحياة، وكيف حباها الله بمؤهلات عظمى، تؤهلها لرسالتها السامية، التى اختارها الله لها ... ثم يسجل رأيه فى بعض القضايا الخاصة بالمرأة، والتى ينفذ منها المتشككون للطعن فى عظمة الشريعة. فهو يبين حكمة الإسلام العالية وراء تشريعاته المتعلقة بالنساء، لأن المولى عز وجل يريد أن يحيطهن بسياج منيع من الرحمة التى تتناسب مع فطرهن، وحاجتهن إلى الحماية والحنان، ممن يحيطون بهن.

فالله سبحانه وتعالى : رفع السماء، ووضع الميزان لتستقيم أمور الحياة، بما يعلمه من طبائع النفوس البشرية، وما فيه صلاحها فهو الحكيم الخبير، الذى بيده مقاليد السماوات والأرض.

وهكذا، فإن المتأمل بقلب بعيد عن الهوى، وبعقل لا يحجبه التعصب الممقوت، سوف يوقن حقا بعظمة الإسلام، فى تحرير المرأة من كل ما يعوق فاعليتها فى الحياة، وذلك بوضع الأمور فى نصابها، لتحقيق نهضة المجتمع الإسلامى، ورقيه وتقدمه، على أسس متينة من شرع الله الحكيم. فالمرأة كانت ومازالت وستظل، هى الشريك الأمين، والعضد المتين، لمساعدة الرجل على مواجهة نوائب الحياة، وتحقيق الهدف الأسمى من الوجود، بنشر مبادئ الخير والحق والعدل، على ربوع العالم أجمع .. وكيف لا ؟ وهى محتضنة الأجيال فى أرحامها، ومربية لهم فى مهادهم، وملقنة لهم فى شبابهم، ودافعة لهم فى جهادهم ضد قوى البغى والطغيان.

فلتعلم النساء جيدا أن الإسلام حررهن الحرية الكاملة، لخلق مجتمع حر كريم، قادر على تحمل تبعات الرسالة، وأداء الأمانة، والرقى بالأمة الإسلامية، رقيا يليق بعزتها وكرامتها، ورسالتها فى الحياة. وما علينا نحن – معشر النساء – إلا أن نعض على ديننا بالنواجذ، وننطلق فى الحياة مترفلين بتعاليم الإسلام، ومتسربلين بحياء الإيمان، نشارك فى نهضة أمتنا، كل منا بما يلائم ظروفها ومواهبها وقدراتها، وتجاهد فى الله حق جهاده، فى الميدان الذى يكون أشد احتياجا لها، وحيث تحقق فيه أكبر منفعة ممكنة. وهنا لن يثار الجدل حول : هل أباح الإسلام العمل للمرأة أم لا ؟ فهذا جدل عقيم. لأن الإسلام دين العمل والجهاد إلى آخر رمق فى الحياة، حتى لو قامت الساعة وفى يد أحدنا غرسة فليغرسها بأمر الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم ولا مكان فى المجتمع الإسلامى لعاطل قادر على السعى لكسب العيش.

أما ما هو نوع العمل الذى تقوم به المرأة ؟ فذلك هو السؤال الذى يجب أن يثار. حتى توضع الضمانات الكافية التى تحيط المرأة بالرعاية والأمان عند أداء عملها، فى ميدانها الملائم لها، بحيث لا يعوقها هذا العمل عن دورها فى أقدس الميادين وأشرفها، وهو ميدان الأمومة المقدسة.

بزوغ حرية المرأة مع فجر الإسلام :

عفوا إن كان هذا العنوان يتسم بالقصور فى جانب الإسلام، لأنه لم يحرر المرأة فقط، بل حرر الإنسانية جمعاء، من عبودية الأهواء والشهوات، وصراع الأطماع والجهالات. ولكنني كتبت هذا العنوان من باب "التحليل الجزئي". وما دفعنا إلى ذلك إلا تلك الهوة التى اندفعت إليها البشرية أصلا، وفصلت بين الذكر والأنثى، وما أظنها إلا ردة إلى عصور الظلمات، بعد أن أنار الله البصائر بنور الإسلام، وأرسل رسوله ليحرر العقول، مما ران عليها من جهل المعتقدات، ويزيل غشاوة كادت تعمى معها الأبصار، فتهوى الأقدام إلى مدارك خطرة، من انحلال الشعوب وضلالها.

فكيف يمكن الفصل بين الذكر والأنثى، وقد خلقهما الله معا، ليقوما بمهمة واحدة، هدفها إعمار الكون، ونشر الحب والحق بين الناس، لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله، والإخلاص فى أداء الأمانة، والقيام بالواجب المنوط به على خير وجه .. ولأجل القيام بتلك المهمة، وتحقيق مراد الله من خلق الإنسان أصلا على وجه الأرض، كان لابد من "التخصص وتقسيم العمل"، فالمرأة لها دور لا يمكن للرجل أن يقوم به، ولها الحق أن تفخر بتشريف الله لها، أن خصها بتلك المهمة الجليلة فى خلق الأجيال. وللرجل دور لا يمكن للمرأة أن تقوم به، نتيجة الخصائص البيولوجية لكل منهما. وبين ذلك أمور مشتبهات، يمكن لكل من الرجل والمرأة القيام بها، حسب قدرات كل منهما الجسدية والمعنوية، والقوانين التشريعية التى تحكم كلا منهما.

- ومن أجل تحقيق ميزان دقيق للحياة : من الله علينا بشريعة الإسلام، لتوقظ الناس من سبات الجهل، بأجراس الحرية العذبة، ونسماتها الفواحة، وتحدد لهم فى خطوط عريضة، كيف يبنون حياتهم على أسس متينة وقواعد راسخة، لا تنهار مع تيارات الحياة الاجتماعية المتجددة. وحرصت شريعة الإسلام أن تكون الحرية دعامة أساسية، من تلك الدعائم المتينة، التى يجب أن ينبنى عليها المجتمع الإسلامى.

ولذلك فقد وجهت عناية خاصة لتحرير المرأة، من كل أنواع القيود التى كانت تكبلها، لأن المرأة هى صانعة الأجيال المسلمة القادمة، فلابد أن تكون حرة، لخلق جيل حر واعى كريم، يعرف كيف يتحمل تبعات الرسالة المحمدية، ويسيح فى الأرض حاملا أسمى المعانى، التى تتوق إليها البشرية، فيخرجها من ظلمات النفوس ومعاناتها، إلى نور الحق الذى يحقق لتلك النفوس أمنها وسكينتها واطمئنانها.

ويجب علينا أن نعى جيدا : الأهمية الخاصة التى أعطاها الإسلام للمرأة، ولا نغمطها حقا فيه حياة الأمة الإسلامية وتقدمها ورقيها، فهى والرجل الركنان الأساسيان لبناء الأسرة، ولن تصلح أسرة أحد ركنيها صحيح والآخر معتل، فلابد أن يكون الركنان يتمتعان بكل القوى المادية والمعنوية حتى يتخلصا من علل الجهل والأمراض الاجتماعية، وبذلك يمكن للأسرة أن تسير فى خضم التيارات المادية المتجددة، بخطوات ثابتة على درب الإيمان والتوحيد، لا تتنازعها الأهواء ومغريات العصر، أو تجرفها عن الصراط المستقيم.

وليعلم الجميع : أن الإسلام أعز المرأة ورفعها مكانة عالية، لم تكن لتحلم بها على مر العصور والأجيال، وأن التعلل ببعض النصوص على إهدار تلك المكانة، هو إجحاف بالشريعة، والجهد الذى بذله رسولنا الحبيب لرقى المرأة، ونهضتها من كبوتها، لتساهم فى بناء المجتمع الإسلامى وتنميته، على أن يكون أول مظاهر تلك المساهمة : هو بناء الأسرة المسلمة القوية، التى تستطيع المشاركة فى الحياة بفاعلية.

- فإذا أرادت النساء الحرية الحقيقية : فعليهن بالإسلام.
- وإذا أردن الرقى إلى مدارج الحق والخير والجمال : فعليهن بالإسلام.
- وإذا أردن مساواة تقوم على موازين الحق جل شأنه : فعليهن بالإسلام.
- وإذا أردن ترشيد خطواتهن فى الحياة، بحيث يحقق أعلى كفاءة ممكنة وأقصى تقدم يمكن أن تصل إليه البشرية : فعليهن بالإسلام.
- وإذا أردن تحصنا من غدرات النفوس وهجماتها : فعليهن بالإسلام.
- وإذا أردن خيرى الدنيا والآخرة : فعليهن بالإسلام.

فإذا ارتاب أحد فى مدى جدية كلماتى : فليمعن النظر خـلال البحـث ليعلم علم اليقين كيف اهتم الإسلام بالمرأة، ورفع شأنها عاليا، وأخــذ بيدهــا إلى مدارج التحرر من جميع أنواع العبودية، حرصا من الشريعة الغراء على حرية النشا المسلم، وعزته ورفعته، فالأم مدرسة أعدها الحكيم الخبير، لتنبــت شــعبا طيــب الأعراق، أجسامه فى الأرض، وأرواحه تحلق فى عنان السماء.

مكانة المرأة قبل ظهور الإسلام :

لا يخفى على أى إنسان منصف يتحرى الحقيقة، تلك المكانة الهابطة الـتى كانت تحتلها المرأة قبل ظهور الإسلام، والمعاملة المهينة التى عوملت بها، حتى صارت عرفا سائدا، وقدرا مقدورا على النساء، يرزحن تحت وطأته، ويكاد يزهق أنفسهن، ويذهب بالبقية الباقية من كرامتهن.

وقد كتب الباحثون فى ذلك الكثير، ولمن أراد التوسع عليه الرجوع إليهم فى هذا الشأن[1].

ولكننا سنكتفى بلمحة سريعة، تعيننا فى توضيح مرادنا، من الدور العظيم الذى قام به الإسلام، فى تحرير المرأة من قيود الذل والهوان التى كبلتها، وأخذ بيدها نحو مدارج العزة والكرامة، لتحتل المكانة اللائقة بها فى بناء المجتمــع الإســلامى، وتحقيق رقيه وتقدمه.

وإذا كان بعض الكتاب الحاقدين على الإسلام، يتهمونه بأنه انتقص مكانة المرأة، فإن هذا ولا شك يدل : إما على جهلهم العميق بشريعة الإســلام؛ وإمــا حقدهم الدفين على ذلك الدين القيم، الذى حرر البشرية جمعاء، وأنــار بصيرتهــا بتعاليم ومبادئ، ما كان يخطر ببالها أن تمارسها حقيقة واقعــة، إبــان الفتوحــات الإسلامية، حتى صارت واقعا حيا ينبض فى نسيج الشعوب، فيحولها طاقة دافعة نحو التنمية، واكتشاف أسرار الله فى الكون.

فإذا كان سبب اتهامهم للإسلام هو الجهل، فنحن ســنحاول بعــون الله توضيح ما جهلوه، تكملة لمسيرة من سبقونا على درب الإيمان، لإرساء معالم الحق

أما إذا كان سبب اتهامهم هو الحقد، فهذا ما لا حيلة لنا فيه، لأنه قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر، ولن يرضوا عنا حتى نتبع ملتهم، ونسقط معهم فى هاوية الشقاء، نتيجة البعد عن جنب الله، وعن منهج رسوله الحبيب، الذى أرسله رحمة للعالمين، يهديهم إلى الصراط المستقيم، ومنهاج الله القويم.

فلنلق نظرة على حال المرأة قبل ظهور الإسلام، لنعرف فضل الله العظيم علينا لأنه بضدها تتبين الأشياء. ولنعرف كيف جاهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ليعلى شأن الإنسانية عامة، والمرأة خاصة:

تقول دائرة المعارف البريطانية(٢):

كان وضع المرأة فى "أثينا" قد تدهور، لدرجة أنها أصبحت بمثابة أمة تلد الأولاد لسيدها. وكان يتم حجز الزوجات داخل بيوتهن، ولم يكن يحصلن على قدر من التعليم، كما لم تكن لهن أية حقوق، ولم يكن أزواجهن يعتبرونهن أفضل من أثاث البيت.

وتمضى دائرة المعارف البريطانية تقول: كان الوضع القانونى للمرأة فى روما القديمة، هو وضع المحكومية الكاملة للرجل، فكانت خاضعة أولا لسلطة أبيها أو أخيها، ثم لسلطة زوجها الذى كان يتمتع بسلطات الأبوة عليها، وكان القانون يعتبر المرأة معتوهة.

ولم تبادر المسيحية إلى اتخاذ أية خطوة لتحسين أوضاع المرأة. فعلى كل المستويات وحتى فى مجال الواجبات الدينية، عوملت المرأة على أساس أنها كائن أدنى. ويقول بولس الرسول فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: "لهذا ينبغى للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة"(٣).

وكذلك تبنت المسيحية معتقدا خاطئا يقول: إن المرأة مسئولة عن إخراج آدم من الجنة. وكما تقول دائرة المعارف البريطانية: "الديانة المسيحية تنظر إلى المرأة كمغوية، ومسئولة عن خروج آدم من الجنة، وكائن بشرى من الدرجة الثانية".

أما فى شريعة اليهود : تعتبر المرأة فى منزلة الخادم عند بعض فرق اليهود، وتحرم الأنثى من الميراث، سواء كانت أما أو زوجة، إذا ما كان للميت ذكور. وهذا موجود فى الإصحاح ٢١ من سفر التكوين.

وقوانين الأحوال الشخصية للإسرائيليين تقول : إذا توفى الزوج ولا ذكور له، تصبح أرملته زوجة لشقيق زوجها، أو لأخيه من أبيه، ولا تحل لغيره إلا إذا تبرأ منها، ورفض الزواج بها.

وفى القانون الصينى : كانت القاعدة أن النساء لا قيمة لهن، ويجب أن يعطين أحقر الأعمال، وفى القوانين الهندية : لا يحق للمرأة فى أى مرحلة من مراحل حياتها، أن تجرى أى أمر وفق مشيئتها ورغبتها، وأن المرأة فى مراحل طفولتها تتبع والدها، وفى مراحل شبابها تتبع زوجها، فإذا مات الزوج تبعت أولادها. وفى عقيدة سانتى : يجب على كل زوجة يموت زوجها أن يحرق جسدها على مقربة من جسد زوجها المحروق، ومن لم تفعل أذلها الشعب إذلالا، يجعل الموت أهون وأكثر راحة لها من الحياة.

وكتب الفيلسوف الإنجليزى (هيربرت سبنسر) فى كتابه علم الاجتماع : إن الرجال كانوا يبيعون الزوجات فى إنجلترا فيما بين القرن الخامس والقرن الحادى عشر الميلادى. لقد وضعت محاكم الكنيسة قانونا، يعطى الزوج الحق فى أن يعطى زوجته لرجل آخر لمدة محددة، بأجر أو بغير أجر. وظل هذا القانون مطبقا حتى ألغى. ولم يكن للمرأة فى أوربا حتى فترة قريبة حق الحضور أمام القضاء، أو حق إبرام العقود، ولا تملك البيع أو الهبة، بغير مشاركة زوجها فى العقد بموافقة مكتوبة.

شريعة الإسلام بين الجحود والإنصاف :

إذا كان هذا هو حال المرأة قبل ظهور الإسلام، فكيف يتهمون الإسلام بأنه أزرى بمكانة المرأة ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم. إنه لم يطرح للمرأة شئ من الحقوق - فى غير المجال الإسلامى - إلا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، بعد أن توسعت النهضة الصناعية فى أوروبا، فأوجدت - مع توسعها - أسلوبا جديدا

للحياة، اضطر المرأة إلى أن تخرج للعمل فى المصانع والشركات والمعامل. فكانت الحاجة إلى عملها أعظم ضاغط على الرجل، جعلتها تفتح فمها بالمطالب، وتقاضيه بما أسمته "حقوقا للمرأة"(٤).

هذا فى الوقت الذى كانت تتمتع فيه المرأة المسلمة بالتكريم الإلهى : حيث كان لها مهر يدفعه الزوج، بعكس الأوروبية التى كانت تدفع لزوجها (الدوطة). وكانت المسلمة تملك وترث وتتصرف فى مالها، وتبرز فى غزوات الإسلام، وفى معترك المعرفة : تبدو محدثة وناقدة وشاعرة. وهذا لا يتأتى إلا فى إطار كبير من الحرية، نعمت به المرأة لأول مرة فى وجودها مع بزوغ فجر الإسلام.

ولكن عندما فرطنا فى معتقداتنا، وغابت عنا شمس الشريعة، التى أنارت حياتنا، تعرضنا للغزو الاستعمارى الغربى، الذى لم يقتصر على تحطيم المجتمعات الإسلامية سياسيا واقتصاديا، بل اتجه إلى عمليات التمزيق الفكرى والاجتماعى، ومن بينها : إظهار سمو النظم الغربية، والانبهار بالحضارة الحديثة والمفاهيم الزائفة، فنسب المستعمر إلى الغرب "احترام المرأة"، وإلى الإسلام "احتقار المرأة" وتضييع حقوقها.

فإذا كان هناك من انساق وراء تلك الأكاذيب، حتى من أهل الإسلام أنفسهم، فإن للحقيقة رجالا، مهمتهم تقصى الحقائق، بعدا عن الزيف وأهواء النفس، والله قادر على نصرة دينه، وإظهار شمس الشريعة واضحة جلية، حتى أنه سخر أقلاما غربية، أنصفت الحق بعيدا عن التعصب الممقوت :

- تقول "لورا فيشيافا غليرى" فى كتابها "دفاع عن الإسلام" ص١٠٦ :

"ولكن إذا كانت المرأة قد بلغت من وجهة النظر الاجتماعية فى أوروبا مكانة رفيعة، فإن مركزها - شرعيا على الأقل - كان حتى سنوات قليلة جدا، ولا يزال فى بعض البلدان، أقل استقلالا من المرأة المسلمة، فى العالم الإسلامى".

- وقال فولتير فى (مقالة القرآن) فى معجم الفلسفة :

"ولقد نسبنا إلى القرآن كثيرا من السخافات، وهو فى الحقيقة خال منها. إن مؤلفينا الذين كثروا كثرة الانكشارية، يجدون من السهل أن يجعلوا نساءنا من حزبهم، بواسطة إقناعهن أن محمدا اعتبرهن حيوانات ذات ذكاء، وأنهن فى نظر الشريعة بمثابة الأرقاء، لا يملكن شيئا من دنياهن، ولا نصيب لهن فى أخراهن .. وبديهى أن هذا الكلام باطل، ومع ذلك فقد كان الناس يصدقونه".

● وقالت جريدة "المونيتور الفرنسية" : كما نقلته مجلة الأزهر فى المجلد الحادى عشر ٣١٥ :

"وقد أوجد الإسلام إصلاحا عظيما، فى حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية. ومما يجب التنويه به : أن الحقوق الشرعية التى منحها الإسلام للمرأة، تفوق كثيرا الحقوق الممنوحة للمرأة الفرنسية".

● وفيما يلى فقرات متفرقة من كتاب "حضارة العرب" لغوستاف لوبون :

"ومبادئ المواريث التى نص عليها القرآن، على جانب عظيم من العدل والإنصاف، ويمكن للقارئ أن يدرك ذلك من الآيات التى أنقلها منه، وأن أشير فيه بدرجة الكفاية إلى أحكامها العامة، ويظهر من مقابلتى بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنجليزية، أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات اللاتى يزعم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف، حقوقا فى المواريث لا نجد مثلها فى قوانيننا".

"وإذا أردنا أن نعلم درجة تأثير القرآن فى أمر النساء، وجب علينا أن ننظر إليهن أيام ازدهار حضارة العرب، فقد ظهر مما قصه المؤرخون أنه كان لهن من الشأن، ما اتفق لأخواتهن حديثا فى أوروبا، وذلك حين انتشار فروسية عرب الأندلس وظرفهم".

"وقد ذكرنا – فى فصل سابق – أن الأوروبيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية، وما اقتضته من احترام المرأة. فالإسلام – إذن – لا النصرانية، هو الذى رفع المرأة من الدرك الأسفل الذى كانت فيه، وذلك خلافا للاعتقاد الشائع .. فإذا

نظرت إلى أمراء النصارى الإقطاعيين، فى القرون الوسطى، رأيتهم لم يحملوا شيئا من الحرمة للنساء".

"ومن الأدلة على أهمية النساء أيام حضارة العرب : كثرة من اشتهر منهن بمعارفهن العلمية والأدبية، فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن، فى العصر العباسى فى المشرق، والعصر الأموى فى أسبانيا".

"ثم نقل عن مؤرخى عبد الرحمن الثالث قولهم : إن ذلك الزمن الذى كان فيه للعلم والأدب شأن عظيم ببلاد الأندلس، كن محبات للدرس فى خدورهن، وكانت الكثيرات منهن يتميزن بدمائتهن ومعارفهن".

"وهنا نستطيع أن نكرر إذن قولنا : إن الإسلام الذى رفع المرأة كثيرا، بعيد من خفضها، ولم نكن أول من دافع عن هذا الرأى، فقد سبقنا إلى مثله "كوسان دوبرسفال" ثم مسيو "بارتلمى سنت هيلر".

"لم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة، بل نضيف إلى هذا أنه أول دين فعل ذلك، ويسهل إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان، والأمم التى جاءت قبل العرب، أساءت إلى المرأة".

"فمما تقدم يثبت أن نقصان شأنهن حدث خلافا للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال". انتهى ما اخترناه من كلام لغوستاف لوبون.

وإن هذا الختام لكلمة حق بلا شك، تستحق أن تكون أجراس يقظة لحركة تحرر المرأة المسلمة، ومنارات هدى على طريق الحق والكرامة. فمعرفة شريعة الإسلام حق معرفتها، هى خير السبل، لتحقق المرأة كل ما تصبو إليه من مبادئ نبيلة، وغايات شريفة سامية.

وننتقل إلى الفصل الثانى لبيان مدارج الشريعة فى تحرير المرأة.

الفصل الثاني

مدارج الشريعة فى تحرير المرأة

تحرير المرأة فى مهدها :

إذا نظرنا إلى الحرية على أساس أنها حق الحياة، المتحررة من الخوف والذلة والمهانة، وجدنا بلا شك أن الإسلام أعطى المرأة تلك المعانى السامية للحرية، وحرر وجودها من تلك الكآبة النفسية التى تحيط بمولدها، نتيجة الإحساس بالخزى والعار. فالعرب فى الجاهلية كانوا يفخرون بالذكور، لأنهم فى نظرهم رمز الشرف والعزة، والدفاع عن حميتهم وقت الحرب، وتحمل المخاطر فى الأسفار وجلب الرزق، وهم أهل الحكم والسياسة والشورى. أما الأنثى فلم تحمل فى نظرهم إلا أنها عبء على القبيلة، فى كل مراحل حياتها، ولا تشرف القبيلة بانتساب الأنثى إليها، فضلا عن زيادة العدد منها.

وفى وسط هذا الجو المشحون بالكراهية للأنثى، والحط من قدرها، كان مجرد نبأ مولدها، يثير قمة الاكتئاب النفسى لدى والدها، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم أصدق تعبير بقوله جل شأنه : {وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون} (النحل ٥٨، ٥٩)

وهكذا بدأ الإسلام يحرر وجود الأنثى من تلك الكراهية الشديدة، التى تحيط بمولدها، وأزال غشاوة الجهل عن العقول والقلوب. فالمرأة والرجل ضروروتان متلازمتان للوجود البشرى، لا غنى لأحدهم عن الآخر :

{وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى} (النجم ٤٥)

وما كان الله ليخلق الإنسان عبثا. فلكل دوره الذى يليق بتكريم الله لـه، ولكل أهميته التى تستحق الفرحة بمقدمه، والسجود شكرا لله على عطائه الجزيل :

{ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير} (الشورى ٤٩، ٥٠)

وتظل آيات الله البينات تمحو ما ران من ظلام الجاهلين على نفوس البشر، الذى أدى بهم إلى جريمة بشعة، هى وأد البنات فى مهدهن، خوفا من أوهام وخرافات شاعت فى وجدانهم. وهنا يظهر فضل الإسلام العظيم، فى تحرير النفوس من ظلماتها وأهوائها، ووضع الموازين الحقيقية، للحياة الحرة الكريمة، للجنس البشرى بنوعيه (الذكر والأنثى).

ومع بزوغ فجر الإسلام، تحررت الأنثى إلى قيام الساعة، من أبشع جريمة كانت ترتكب ضدها، لتمحو وجودها فى مهدها، احتقارا لشأنها وتخفيضا لأعدادها، وتقليلا لشرورها، كما كان العالم كله يعتقد ذلك، وليس العرب فقط. وأصبح وأد البنات جريمة يعاقب عليها الشرع دنيويا وأخرويا. قال تعالى فى كتابه الكريم :

{وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت} (التكوير ٨، ٩)

وهكذا بدأت الأنثى تتنسم أولى بشائر الحرية، وتنعم ببهجة وجودها، لتشارك فى تدعيم مجتمعها، وهى عابدة لربها محبة لرسولها، الذى بذل الجهد العظيم، ليرسى معالم وجودها، على أساس من الحرية والعدل والمساواة. وكيف لا؟ وهو الذى أكمل بسنته الحميدة، انقشاع ما ران على النفوس من احتقار الأنثى، أو على الأقل عدم الفرحة بمقدمها مثل الذكر، فقد فرح ببناته فرحة كبرى، أثلجت صدر زوجته السيدة خديجة، التى كانت تتمنى أن يعوضها الله عن ولدها القاسم ولدا آخر. فرزقها الله أربعة بنات، قبل أن يرزقها ولدها عبد الله[٦]. ولكنها سعدت بهن لسعادة زوجها. ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بمشاعره الخاصة ناحية

البنات ، بل جعلها شرعا أساسيا ومنهاجا حميدا للمسلمين أجمعين، يتمثل ذلـــك فى أحاديثه المباركة الشريفة :

- عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : "من كانت له أنثى، فلم يئدها ولم يهنها، ولم يؤثر ولده (يعنى الذكور) عليهن، أدخله الله الجنة". (رواه أبو داود والحاكم)
- عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كن له ثلاث بنات، يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن، وجبت له الجنة البتة. قيل : يا رســـول الله فإن كانتا اثنتين؟ قال : وإن كانتا اثنتين. قال : فرأى بعض القوم أن لو قـــال : واحدة لقال واحدة". (رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط)
- وعن أنس ﷺ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "من عال جاريتين حـــتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه". (رواه مسلم)
- وعن أبي سعيد الخدرى ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســـــلم : "من كان له ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، أو بنتـــان أو أختـــان، فأحســـن صحبتهن، واتقى الله فيهن، فله الجنة". رواه الترمذى واللفظ له وأبـــو داود إلا أنه قال : فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة.
- وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كفـــل يتيما له ذا قرابة أو لا قرابة له، فأنا وهو فى الجنة كهاتين، وضم أصبعيه، ومن سعى على ثلاث بنات فهو فى الجنة، وكان له كأجر مجـــاهد فى ســـبيل الله، صائما قائما". (رواه البزار من رواية ليث بن أبي سليم)

هكذا استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم بسنته الحميدة، النابعة مـــن شرع الله الحكيم، أن يقتلع جذور الجاهلية من القلوب، وأن يعمرها بنور الإسلام. فإذا علا صوت النساء فى عصرنا الحديث، يطالبن بأى حق من الحقوق، فليعلمن أن هذا الصوت لم يكن ليعلوا أصلا لولا الإسلام، وجهاد نبينا الحبيب ضد قـــوى الباطل، لتحرير البشرية جمعاء، من كل صور العبودية والذلة والمهانة.

تحرير المرأة فى شبابها :

إن الله الحكيم الخبير، لم يكن ليحرر المرأة فى مهدها، ثم يتركها تتعرض لضغوط الجاهلية من جديد، بل لقد حماها بشرعه المنير، بسياج متين، يحميها من كل قوى الشر والطغيان، بحيث تظل للمرأة مكانتها السامية، لتساهم فى بناء المجتمع الإسلامى، على أسس واضحة من الحرية والعدل والمساواة. وهنا لابد من توضيح مفهوم أساسى، ننطلق منه فى بحثنا وهو : أن الحرية التى جاء بها الإسلام هى الحرية المنضبطة بمقاييس الشرع والدين، وليست حرية الإنفلات، التى تهبط بالإنسان إلى مرتبة الحيوانات.

الفرق بين الحرية المطلقة والحرية الملتزمة :

فى الحقيقة أفضل مرجع يمكن الرجوع إليه فى هذا المجال، هو كتاب المفكر الهندى الكبير (وحيد الدين خان)[٧] حيث يتكلم عن نتائج الحضارة الحديثة، والمشاكل التى نتجت عن الحرية المطلقة، التى نادت بها الحضارة الغربية، واعتنقها الشباب تحررا من القيم والأخلاق. وكلامه ليس نابعا من هوى نفسه بل نقلا عن أبحاث الغربيين أنفسهم، ومحاولته إيجاد مخرج من تلك المهاوى التى انزلق إليها الغرب، نتيجة الإباحية الجنسية، والتحلل من قيود الأسرة، والمساواة غير الطبيعية بين النساء والرجال، حيث نتج عن ذلك أمراض خطيرة، أهمها الإيدز، وهو كفيل بالقضاء على الأمة بأسرها، ونتج أبناء غير شرعيين، يعانون من مرض خطير يسمى "قزمية الحرمان" يؤدى إلى القضاء على الإنسان نفسه، كما نتجت أسر مشتتة وصراعات عائلية هائلة، وأمراضا اجتماعية لا حصر لها، تشيع القلق والذعر بين أفراد المجتمع، كما نتج عن ذلك زيادة حالات الانتحار وخاصة بين الشباب، كوسيلة لإنهاء الألم، وحل المشكلة أو المأزق الذى يجدون أنفسهم فيه.

وهكذا تصادمت الحرية المطلقة مع الطبيعة، وخلق هذا الانتهاك للنظام التكوينى الطبيعى، أنواعا من المشكلات المستعصية على الحل، مما حمل الناس على إعادة النظر فى موقفهم، فأصبحوا يعارضون أسلوب التحرر الجنسى، بعد أن أيدوه

بشدة فيما مضى. وأصبحت العفة الآن مبدأ أساسيا حتى فى نظر الغرب، لإنشاء علاقات زوجية صحية، بعد أن كانت فى نظرهم قيدا من قيود الدين، الذى يمنعهم من لذة تذوق الحياة.

وتعترف زعيمة الحركة النسائية "جيرمان غريار" فى حديثها إلى صحيفة إنديان اكسبريس[٨] :بأن حماسها للحركة فى عنفوان شبابها، لم يكن يطابق الواقع. فتقول : الأمر الذى يقلقنى اليوم هو نتائج حركة التحرر الجنسى، فعدد الفتيات اللواتى يستخدمن أقراص منع الحمل، منذ بلوغهن الثانية عشرة والثالثة عشرة من أعمارهن، وعدد المراهقات اللواتى تحبلن عند بلوغهن الخامسة عشرة والسادسة عشرة من أعمارهن فى تزايد مستمر. ما الذى يحدث لهن ؟ الجنس يعنى شيئا مختلفا بالنسبة إلى الرجال. فيمكنهم أن يمارسوا الحب وينصرفوا، ويمكنهم حين يحين وقت الذهاب إلى الجامعة، أن يبدأوا دراساتهم بكل سهولة. أما النساء فأحاسيسهن مختلفة. فهن يمارسن الحب بعقولهن وقلوبهن وأجسادهن، وهن يتحطمن بتحطم قصة حب واحدة. وقد رأيت هذا يحدث لنسوة قريبات منى. وهو شئ مروع.

وتقول : "ربما تكمن المشكلة فى أننا لم نشرك معنا أمهاتنا، وخلفناهن وراءنا، باعتبارهن من الطراز العتيق. ولكننا بعد أن أصبحت غالبيتنا أمهات ولنا بنات مراهقات، نتناول المشكلات حاليا بوجهة نظر مغايرة. وربما أصبح الآن بالإمكان، أن نقدر مواقف أمهاتنا بطريقة أفضل".

ذلك ما وصلت إليه زعيمة حركة التحرر النسائية فى الغرب، بعدما قضت سنوات شبابها فى الدعوة إلى حرية المرأة، لدرجة أنها دعت إلى إلغاء مؤسسة الزواج التقليدى، وألفت كتابها "الأنثى المخصية".

وتقول بعد الخبرة والنضج لمراسل جريدة أخرى[٩] :

"لا يملك الغرب أى حل لمشكلة عدم المساواة بين الرجل والمرأة. وتعتقد المرأة الغربية خطأ أن المحجبة تعانى من كبت الحرية، وأن اللاتى يستخدمن مساحيق التجميل والحاسرات منهن أكثر تحررا وتقدمية. فأمثال تلك الآراء ينبغى وضعها

جانبا. فحوادث تعرض النساء للضرب، قد تفشت فيما يسمى بالغرب المتحضر. إن ٢٥ فى المائة من الجرائم التى تقع فى إنجلترا، هى حوادث عنف ضد النساء. وتتعرض (١٥) فى المائة من النساء للضرب، من قبل أزواجهن وعشاقهن فى الولايات المتحدة.

أما السيدة غزالة حليمى المحامية الفرنسية التونسية المولد، والتى كانت فى طليعة المناضلات لأجل حقوق المرأة فى فرنسا، مع سيمون دى بوفوار فتقول[١٠]:

"إن الحركة النسائية الجديدة تمر بمرحلة حرجة. فقد تحققت للنساء كافة مطالبهن، بأسرع ما كن يعتقدن، كحقوق منع الحمل والإجهاض والطلاق. إلا أن مشكلة المرأة لم تحل بعد. فالنساء يمتلكن قيما وأخلاقيات معينة، ووجهة نظر متباينة إزاء البشرية. وليس معناها أنها أفضل من وجهة نظر الرجال، بل تعنى فقط أنها مغايرة. وعلى النساء أن يؤدين دورهن كنساء، لا أن يترعن إلى تقمص دور الرجال بصورة مصطنعة".

وهكذا تجنح البشرية الشقية إلى بر الأمان، بعدما شقيت بالحرية المطلقة .. ونجد القيادات النسائية البارزة فى الغرب، فى خريف أعمارهن يؤيدن الدور النموذجى السابق للمرأة، بعد أن قضين شبابهن كداعيات متحمسات، لأجل الدور النموذجى الحديث للمرأة.

ونحن نساء المسلمات : نسعد بأن الإسلام حفظنا من تيارات الحرية المطلقة، القائمة على أوهام وأهواء طائشة، سرعان ما تجر أصحابها إلى مهاوى الشقاء والتعاسة، وتفكك العقد الاجتماعى للأمة.

ونفخر بالحرية التى منحتها لنا الشريعة، لتتوجنا بمكارم الأخلاق الحميدة، وتحيطنا بسياج من الطهر والشرف، يحفظ لنا عزتنا وكرامتنا :

{لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم} (البقرة ٢٥٦)

{يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما} (الأحزاب ٥٩)

ونحن يا إلهي قد استجبنا لنداء الإسلام طائعات غير مكرهات. وفى رحاب الشريعة السمحاء نعمنا بالحرية الملتزمة بأنبل القيم والعقائد السامية، ولا نرضى بغير تلك الحرية بديلا، لأنها تبنى ولا تهدم، تعمر ولا تخرب، تحقق للأمة جمعاء ما تصبو إليه من تقدم ورفاهية ورخاء.

فلنواصل البحث لنرى كيف حققت الشريعة الحرية للمرأة فى أسمى صورها.

حرية المرأة فى طلب العلم :

لا أحد ينكر أن الإسلام دين الحياة القائمة على العلم، وأن الإيمان بالله يتطلب أولا وقبل كل شئ العلم. قال تعالى فى كتابه الكريم :

{أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب} (الزمر ٩)

فالعلم هو شعاع النور، الذى يفصل بين الحق والباطل، وهو أساس التمييز، لاستكشاف ما فى الكون من أسرار الله، حتى تكون خطوات المؤمن بأقدام ثابتة، على طريق الخير والمنهج القويم. ولذلك فلا عجب أن كانت أول آية نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هى "اقرأ" لأن القراءة تؤدى إلى التعلم، والعلم هو معراج المؤمن الروحى والمادى، فلا عمران للكون ولا تنمية بدون علم، ولا معرفة لله حق معرفته بدون علم، ولا إقامة لشرع الله الحكيم بدون علم.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة : لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار

سبل أهل الجنة وهو الأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء. يرفع الله به أقواما، فيجعلهم فى الخير قائمة تقتص آثارهم، ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة فى خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء". (رواه ابن عبد البر النمرى فى كتاب العلم)

ونظرا لتلك الأهمية العظيمة للعلم، التى أرستها شريعة الإسلام، وسار على نهج تدعيمها الرسول الكريم، فإن المرأة لم تحرم من ذلك المنهل العذب، بل هو أمر أصدره الله إليها، لدورها العظيم فى إعداد الأجيال، فها هو جل شأنه يخاطب مريم ابنة عمران، بأن تنهل من مناهل العلم، لأنها ستؤهل لإعداد نبى كريم، فلابد أن تكون على مستوى تلك المسئولية الخطيرة. فيقول لها فى كتابه الكريم :

{يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين} (آل عمران ٤٣)

ثم مدحها هى وامرأة فرعون فى موضع آخر، لأنهما آمنا الإيمان الحق القائم على العلم اليقينى، فتحملتا كل الصعاب، واستلذتا كل المشاق، فى سبيل ما علمتاه، من الجزاء الأوفى عند لقاء الله، وكانتا المثل الأعلى للمؤمنين فى كل زمان ومكان، سواء الرجال أو النساء :

{ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين. ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين}
(التحريم ١١، ١٢)

والذين يحاولون تضعيف حديث النبي صلى الله عليه وسلم : "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة".

نسألهم : لماذا لا يكون فريضة على المسلمة، حتى تتبين أمور دينها وأداء عباداتها، وعبادة ربها، وإخراج زكاة مالها، وتعليم أبنائها ؟ كيف يمكن أن تشارك الرجل جنبا إلى جنب، فى تلك الآيات القرآنية، كما سنذكرها حاليا، ثم لا يكون طلب العلم فريضة عليها ؟!

{ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما} (الأحزاب ٣٥)

فإذا كان الله قد شرف المرأة، وفرض عليها أشرف العلوم، فهل يضيق عليها بعد ذلك فيما هو أدنى من ذلك ؟ فكيف يمكن تعليم بنات المسلمين، إذا لم تتعلم المرأة ؟ وكيف يمكن معالجة نساء المؤمنين، إذا لم يكن هناك طبيبات مسلمات ؟ وكيف يمكن متابعة دروس الأبناء، ومساعدتهم فى طريق حياتهم، واتخاذ قرارهم،إذا لم تكن الأمهات على علم دنيوى ، يمكنهن من متابعة أحداث العالم المتلاحقة ، وما يدبر من مؤامرات للمسلمين على موائد اللئام، معتمدين على جهلهم، وعدم فهمهم لتحليل الأحداث العالمية والقرارات السياسية.

إن العيب ليس فى العلم فى حد ذاته، فالعلم نور للمرأة ينير طريقها، ويساعدها على تربية أجيال قوية، تحمل على سواعدها عبء الرسالة الإسلامية، إنما العيب هو فى طريقة تلقى العلم، والاختلاط الذى يصاحبه، بما قد يسبب مفاسد. فعلى الغيورين على دينهم حقا، أن يكون التحدى الذى يواجهونه هو : كيف نعلم المرأة فى ضوء الوقار والحشمة، وتعاليم الدين الحنيف ؟ وكيف نعد صانعة الأجيال الإعداد الأمثل ؟

أما أن يكون شاغلهم الشاغل هو : هل يجوز للمرأة أن تتعلم أم لا ؟ فتلك قضية خاسرة، لأن العلم للمرأة ضرورة حيوية، ينصلح بها شأن الأمة الإسلامية، وتصبح قادرة على مواجهة التحديات، التى تحيط بها من كل جانب، كما فعلت النساء الأوليات، حيث كن يحتشدن لسماع النبى صلى الله عليه وسلم والصلاة معه لأجل التعلم. والعلم علمان : علم أحكام الدين : وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون، لأنه ليس له حدود، فليغترف الجميع من معين الوحى الإلهى الذى لا ينضب، ولنا أسوة حسنة فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم الذى صدر لهن الأمر الإلهى :

{واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا}(الأحزاب ٣٤)

والعلم الدنيوى : وهو فرض كفاية. فلتغترف منه المؤمنات الصالحات، بما يصلح أحوالهن، وأحوال أبنائهن، ورقى أمتهن، بدون التنافس مع الرجال فى مجال العمل. وطلب مساواة تشقيهن فى حياتهن بعد ذلك، فالأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فلتكن نيتهن صالحة فى طلب العلم. لبناء أمة الإسلام، بما يتفق مع ظروفهن وتعاليم الشرع الحكيم.

ذكر البلاذرى فى فتوح البلدان(١١) : نساء مسلمات تعلمن القراءة والكتابة، يبلغ عدد المعروف منهن، نصف عدد المعروف من الرجال والكتاب .. وروى أن الشفاء العدوية (من قبيلة بنى عدى رهط عمر بن الخطاب) طلب إليها النبى أن تعلم زوجه أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب تحسين الخط وتزيين الكتابة.

لقد بلغ التعلم فى المجال النسائى حدا كبيرا، جعل النساء يشاركن الرجال تعة الزحف بالإسلام نحو الخافقين .. وشاركت النساء فى بيعة العقبة الأولى والثانية، وفى تعليم النساء والنشء تعاليم الدين الحنيف ومبادئ الحياة، التى تساعد على تكوين أمة إسلامية قوية. وروت عائشة أكثر من مائتين وألفى حديث، وأختها

أسماء روت ٥٦ حديثا، وغيرهن كثيرات، نأخذ عنهن سنة النبى صلى الله عليه وسلم.

ويروى عن أم الدرداء الفقيهة الزاهدة : حضها على العلم وتفضيله على كل ما سواه. إذ تقول : لقد طلبت العبادة فى كل شئ، فما أصبت لنفسى شيئا، أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم. وقد وصفها النووى بقوله : "اتفقوا على وصفها بالفقه والعقل والفهم".

قال الأستاذ صلاح عبد العزيز، العميد السابق لمعهد التربية العالى للمعلمين فى كتابه "تطور النظرية التربوية" :

"والأمثلة كثيرة على النساء العربيات المسلمات، اللواتى تعلمن القراءة والكتابة والنحو، وروين الحديث، بل كثيرة على أنهن لم يتعلمن فقط، وإنما كن يعلمن غيرهن. وكان ممن درس عن النساء، بعض مشاهير الرجال".

وقد ورد فى كتاب "تهذيب الأسماء" للنووى : أسماء بعض أولئك النساء اللاتى تولين هذه الرسالة، وكان ينظر إليهن بعين التبجيل والإعجاب. وفى اهتمام مؤلفى العرب بتسجيل أسماء أولئك السيدات، دليل قوى على تقديرهم لعلمهن، وعلى إيمانهم بأن جهودهن فى نشر العلم جديرة بالتسجيل.

وقال الأستاذ صالح عبد العزيز[١٢] : "لم تقتصر النساء على الدراسة، بل قمن إلى جانبها بالأشغال المنوعة. فكن يشاركن الرجال فى مهن مختلفة. كالتدريس والطب والقضاء، وشغل الوظائف الهامة فى الخدمة المدنية".

والمراد بالقضاء ما كان يختص بشئون النساء، وفى غير الجنايات عند من أجاز لهن ذلك.

هذا هو الإسلام وعظمته فى تحرير المرأة، وصقل شخصيتها بالعلم. فياليت نساء هذا العصر يعضضن على دينهن بالنواجذ، وبعد ذلك يخضن أى ميدان شئن، مادمن يعرفن حدودهن، القائمة على معرفتهن لشرع الله الحكيم، وهنا لن يخشى عن النساء من الانحراف، ولا على الرجال من الفتنة، ولا على الأسر من التشتت،

لأن المرأة المسلمة ستعرف حقوق أسرتها حق المعرفة، وسيشيع نورها عليها أولا، فإذا بقى لها مزيد من الجهد والطاقة فحسب التدرج الإسلامى فى البر والأوامر التشريعية، سوف ينتشر نورها إلى مجتمعاتها.

ونحن نتمنى فى عصر الإعلام الزائف، وتعدد متع الحياة المغرية حاليا: أن نجد المرأة المتدينة المثقفة، التى يكون لرأيها وزن حقيقى، وأهمية ملحة مثل ملكة سبأ، التى حدثنا عنها المولى عز وجل فى كتابه الحكيم:

{قالت يا أيها الملؤا أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون. قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين} (النمل ٣٢، ٣٣)

فرغم تعدد المعاهد والجامعات، وانتشار دور العلم اللاتى تتعلم فيها الفتيات، إلا أننا لا نملك نساء على مستوى عقل وإيمان النساء المسلمات الأوليات، وهذا أكبر دليل على أن الإسلام براء مما يوجهونه إليه من تهم، ما أنزل الله بها من سلطان. فالإسلام هو دين العقل والروح، دين الحرية والعقيدة القيمة، دين المبادئ العريقة والأهداف الراقية، دين الحضارة للشعوب والأمم. ويا ليت قومى يعلمون !!

حرية المرأة فى التعبير عن رأيها :

إن حرية المرأة فى التعبير عن رأيها، نابعة من اهتمام الإسلام اهتماما بالغا بحرية الفكر، وما ينبع عنها من حرية الرأى والعقيدة. فالعقل هو خاصة الإنسان وامتيازه وشرفه، وهو مناط التكليف والخطاب الإلهى، بالأمر والنهى والوعيد. فالله يخاطب فى الإنسان عقله، ويضئ الطريق أمام العقل بنور الشرع. فبالعقل كان الإنسان إنسانا وكان امتيازه على غيره. وللإنسان الحق فى أن يفكر تفكيرا مستقلا، فى جميع ما يكتنفه من شئون، وما يقع تحت إدراكه من ظواهر، وأن يأخذ بما يهديه إليه فهمه، ويعبر عنه بمختلف وسائل التعبير.

وقد أقر الإسلام هذا الحق على أوسع نطاق، بل جعله فريضة واجبة على كل إنسان (ذكرا كان أم أنثى) لأن الفكر الحر السليم، البعيد عن التعصب والزيف والخداع، لابد أن يقود الإنسان إلى آفاق رحبة واسعة، سواء فى عالم المادة أو عالم الروح.

ويعيب القرآن على الناس أن يلغوا عقولهم، ويعطلوا تفكيرهم، ويقلدوا غيرهم، ويؤمنوا بالخرافات والأوهام، ويتمسكوا بالعادات والتقاليد، دون تفكير فيما يتركون وما يأخذون. وينعى عليهم ذلك كله، ويصف من كانوا على هذه الشاكلة، بأنهم كالأنعام بل أضل سبيلا من الأنعام، لأنهم يتبعون غيرهم دون تفكير، ولا يحكمون عقولهم فيما يعملون أو يقولون أو يسمعون، لأن العقل هو الميزة العظيمة، التى ميز الله بها الإنسان على غيره من المخلوقات، فإذا ألغى عقله أو عطل فكره، تساوى بالأنعام بل كان أضل منها :

{وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون. ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون} (البقرة ١٧٠، ١٧١)

وحرية الرأى هى الترجمة الفعلية لحرية الفكر، فالفكر والرأى وجهان لعملة واحدة، وهما مرآة شخصية الإنسان بصفة عامة، والمسلم بصفة خاصة، فالساكت عن الحق شيطان أخرس. فالمسلم الذى تحرر فكره، وعرف طريق الحق، لابد أن يدلى برأيه فى كل موقف يتعرض له، أو كل قضية وقف بصددها. فما فائدة الإيمان إذا لم يدعم بالرأى الحر ؟

{الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر} (الحج ٤١)

وقال صلوات ربى وسلامه عليه داعيا إلى حرية الرأى، التى ترفع لواء الحق عاليا، لأنها تنبع من حرية الفكر الإيمانى :

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان". (رواه مسلم والترمذى وابن ماجه والنسائى ولفظه) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلمقال : "من رأى منكم منكرا فغيره بيده، فقد برئ، ومن لم يستطع أن يغيره بيده، فغيره بلسانه، فقد برئ، ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه، فغيره بقلبه، فقد برئ وذلك أضعف الإيمان").

ومن هذا المنطلق : أتاح الإسلام للمرأة حرية التعبير عن رأيها، لأنه مكنها من أمانة مكفولة فى أعناقها، وهى أنها زوجة وأم، مسئولة عن أغلى وديعة فى الكون، وهم النشئ الذين سيحملون على أكتافهم، مستقبل الأمة الإسلامية ونهضتها. فكما عليها مسئولية، فلها سلطة إبداء الرأى، فالمسئولية والسلطة هما كفتا الميزان، الذى تقوم عليه الحياة وتتوازن به. ومسئولية المرأة ليست فى الحياة الدنيا فقط، وإنما هى مسئولية جسيمة، تسأل عنها أمام الله ورسوله يوم القيامة، كما قال الصادق المعصوم :

عن ابن عمر ﷺ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كلكم راع ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته". (رواه البخارى ومسلم)

من هذا المنطلق كان للمرأة فى صدر الإسلام مكانة بارزة، لإرساء دعائم المجتمع الإسلامى على أسس ثابتة من الشورى والمساواة والحرية. ونعرض هنا بعض النماذج التى تدل على حرص الرسول صلى الله عليه وسلم أن يضع المرأة فى إطارها الصحيح اللائق بها، ليزيل ما علق فى وجدان المجتمع من جاهلية، اقترنت بازدراء المرأة والتقليل من شأنها.

نماذج من حرية المرأة فى التعبير عن رأيها :

- فى صلح الحديبية : استشار الرسول صلى الله عليه وسلم زوجته أم سلمة، فى أمر أصحابه الذين ترددوا فى تنفيذ ما أمرهم به، من إحلال وحلق ونحر، ثم اتبع رأيها كما هو معروف[١٣]. وهكذا استطاعت امرأة برأيها السديد، أن تنقذ الأمة الإسلامية من فتنة كبيرة، يمكن أن تودى برجالها الصالحين، بغير ذنب اقترفوه، سوى اعتزازهم الشديد بعقيدتهم، ورفضهم أن يرضوا بالدنية فى دينهم.

- بعد غزوة تبوك، عندما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقاطعة هلال بن أمية الواقفى، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العمرى، وأمر نساءهم بمقاطعتهم أيضا، جاءته خولة بنت عاصم تستأذنه فى خدمة زوجها، هلال بن أمية والإقامة معه، فأذن لها على ألا تسمح له بمقاربتها[١٤]. وهو خبر يدل على حرية المرأة فى إبداء رأيها، والتوسط لزوجها عند الرسول صلى الله عليه وسلم كما تدل عليه أخبار أخرى مشابهة : فقبيل الفتح خرج أبو العاص بن الربيع – زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو مقيم على شركه بمكة – فى تجارة إلى الشام، فأسرته سرية من المسلمين وأتت به إلى المدينة، فاستجار بزوجته زينب فأجارته، فقال الرسول : إنه يجير على المسلمين أدناهم. ثم انصرف إلى بيته فقال لها : أى بنية أكرمى مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له[١٥].

- وفى فتح مكة أيضا : استجار رجلان بأم هانئ بنت أبى طالب، وفرا إليها خوفا من أخيها على، فأجارتهما، وذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : "قد أجرنا
من أجرت وأمنا من أمنت"[١٦].

- ولم تكن المسلمة تتحرج عن مناقشة أدق التفاصيل الشخصية، وموقف الدين منها .. سألته يوما فاطمة بنت أبى حبيش : يا رسول الله، إنى امرأة أستحاض

فلا أطهر. أفأدع الصلاة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما ذلك عرق وليست بالحيضة. فإذا أقبلت الحيضة فدعى الصلاة، فإذا أدبرت عنك الحيضة فاغسلى عنك الدم فصلى"(١٧).

● وعن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجال والنساء قعود عنده فقال : لعل رجلا يقول ما فعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها. فأزم القوم - أى سكتوا وجلين - فقالت : "أى والله يا رسول الله إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن". قال : فلا تفعلوا فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقى شيطانة فغشيها، والناس ينظرون"(١٨).

● أعظم الأدلة على ما منحه الإسلام للمرأة من حرية التعبير عن رأيها والاستجابة لوجهة نظرها سورة المجادلة :

حيث استطاعت تلك المرأة، بعرض قضيتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضا يتفق مع ما تعانيه من مرارة، أن تنقذ نفسها وبنات جنسها، أبد الدهر من عادة جاهلية قبيحة وهي الظهار : {قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير. الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا إن الله لعفو غفور} (المجادلة ٢، ٣)

● وها هي السيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها : تضرب مثلا رائعا لأهمية دور المرأة ورأيها، فى مسار الدعوة الإسلامية، فهى التى وقفت بجانب الرسول تشد من أزره وتثبت فؤاده، وهو يتعرض لأصعب موقف يمكن أن يجابهه إنسان، بل تتضاءل بجانبه جميع مواقف الدنيا، إنه لحظة اتصال السماء بالأرض، ونزول الوحى عليه لأول مرة. فقال له بلسان اليقين : "كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق"(١٩).

ولنا أن نتصور حال الرسول صلى الله عليه وسلم لو لم تكن بجانبه تلك السيدة العظيمة بآرائها السديدة، وقلبها العامر بالحب والإخلاص، ومكارم الأخلاق.

هذا هو الإسلام : الذى يوصمونه بهتانا وظلما بأنه انتقص من مكانة المرأة. إننى أكاد أجزم بكل اليقين، أن البعد عن منهج الإسلام هو الذى أدى لذلك، فالإسلام حرر البشرية جمعاء من عبودية الأهواء، وظلمات الشرك والضلالة. وحرر المرأة بصفة خاصة من كل ما تعانيه من ذلك ومهانة، لأنها صانعة الأجيال، فلابد أن توفر لها الشريعة الحرية والعزة والكرامة، لخلق أجيال مسلمة قوية، قادرة على إقامة حدود الله، وتجوب الأرض لنشر مبادئ الحق، وتقيل البشرية من عثرات الجاهلية. وإذا كانت النساء ينعمن الآن بالحرية فى أرجاء العالم، فهذا بفضل جهاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لإرساء شريعة الإسلام، وما تضمنته من تعزيز مكانة النساء.

حرية المرأة فى اختيار شريك حياتها وتقرير مصيرها :

لقد فرض الإسلام على الزوجة واجبات جليلة نحو زوجها، تصل إلى حد القداسة، وتقف بها على شفا حفرة من النار، إن هى قصرت فى أداء تلك الواجبات:

عن ابن أبي أوفى ﷺ قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبى صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا ؟ قال : يا رسول الله قدمت الشام، فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفهم، فأردت أن أفعل ذلك بك. قال : فلا تفعل، فإني لو أمرت شيئا أن يسجد لشئ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذى نفسى بيده، لا تؤدى المرأة حق ربها، حتى تؤدى حق زوجها. (رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه واللفظ له ولفظ ابن ماجه زاد فيه) "ولو سألها نفسها، وهى على ظهر قتب لم تمنعه"[٢]. ومعنى ظهر قتب أى ظهر بعير.

• وروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله ! أنا وافدة النساء إليك. هذا الجهاد كتبه الله على الرجال، فإن يصيبوا أجروا، وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون. ونحن معشر النساء نقوم عليهم. فما لنا من ذلك ؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبلغى من لقيت من النساء، أن طاعة الزوج واعترافا بحقه، يعدل ذلك. وقليل منكن من تفعله. (رواه البزار مختصرا)

إنها حقا أمانة عظيمة ومسئولية جسيمة، أوكلها الله إلى النساء، من خلال إطار العلاقة الزوجية : فلا يقبل منها صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا حج، إلا بطاعة زوجها. وقدرتها على ذلك تعدل الجهاد فى سبيل الله، وتفريطها فيه يعرضها إلى لعنة الله ورسوله، والملائكة والمؤمنين أجمعين.

فكيف تقوم المرأة بذلك، إذا لم تكن راضية عن شريك حياتها، وتجد معه الاطمئنان النفسى. والتجاوب الروحى والعقلى ؟! فالإسلام إذا كان قد فرض على المرأة تلك المسئولية الخطيرة، فهو أعطاها حقا من الحقوق المصيرية، ألا وهو حق اختيار شريك حياتها، حتى تتوازن أمور الحياة، وتستقيم على النهج الذى أراده الله ورسوله : فالميزان الذى وضعه الله فى الأرض، يستلزم تكافؤ السلطة مع المسئولية، وهذا هو منطق العدالة وشرع الحكم العدل.

وجاء فى كتيب للدكتور سعد الدين السيد صالح[٣١] :

إن حق المرأة فى اختيار شريك حياتها، نقطة يكثر الجدل حولها، بين مؤيد ومعارض. وربما كان مصدر الجدل هو سوء الفهم، لبعض توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم : حيث يتمسك المعارضون لتقرير هذا الحق، بظاهر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل. فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان ولى من لا ولى له". رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه

والترمذى عن عائشة رضى الله عنها .. وقد فهموا من هذا الحديث خطأ أن المـرأة لا حق لها فى إبداء الرأى والمشورة. وأن ما يفرضه ولى الأمـــر يجـب عليـها أن تمتثل له.

وليس هذا هو المعنى الصحيح لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فقد جاء هذا الحديث لكى يثبت حق الولى فى المشورة، لا لينفى حق المرأة فى إبداء رأيها .. ومن هنا اشترط الفقهاء رضا ولى أمرها، لأنه بعقله وحكمته، اقدر علـى فهم الأمور، وتغليب مصلحة البنت، وخوفا من الوقوع فى المحذور، حيـث تتبـع البنت أحيانا هواها، ولا تعرف مصلحتها، فتنخدع بمعسول الكـلام، والوعـود الخادعة .. ومن هنا كان لابد من اعتبار مشورة ولى الأمر.

ولكن إثبات هذا الحق لولى الأمر، لا ينفى حق المرأة فى إبداء رأيـها، وفى رفض من لا يكون مناسبا لها. وأنه ليس من حق ولى الأمر أن يجبرها على الـزواج، من غير كفء لها، أو يمنعها من زواج هو كفء لها، ويهواه قلبها.

وفى ذلك نسجل ما جاء من أحداث، صحح منهاجها القرآن الكـريم، أو السنة النبوية الشريفة، لتقوم الحياة على أسس متينة من الحق والعدل، مؤكدة حرية المرأة فى تقرير مصيرها[٢٢].

- روى البخارى عن الحسن قال: { ... فـلا تعضلوهـن ...} (البقـرة ٢٣٢) "حدثنى معقل بن يسار أنها نزلت فيه. قال : زوجت أختا لى من رجل فطلقها. حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له : زوجتك وفرشتك وأكرمتـك، فطلقتها .. ثم جئت تخطبها. لا والله لا تعود إليها أبدا. وكان رجلا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآيـة {... فـلا تعضلوهـن ...} فقلت : الآن أفعل يا رسول الله. قال : فزوجتها إياه".
- وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الثيـب أحـق بنفسها من وليها. والبكر تستأذن فى نفسها وإذنها صمتها". رواه الجماعة إلا

البخارى. وفى رواية لأحمد ومسلم وأبى داود والنسائى : (والبكر يستأمرها أبوها) أى يطلب أمرها قبل العقد عليها.

- وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن. قالوا : يا رسول الله : كيف إذنها؟ قال: أن تسكت".

- وعن حسناء بنت خدام "أن أباها زوجها وهى ثيب، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد نكاحها". أخرجه الجماعة إلا مسلما.

- وعن ابن عباس : أن جارية بكرا أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له أن أباها زوجها وهى كارهة فخيرها النبى. رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والدار قطنى.

- وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : جاءت فتاة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أبى زوجنى ابن أخيه، ليرفع بى خسيسته. قال : فجعل الأمر إليها، فقالت : قد أجزت ما صنع أبى، ولكن أردت أن أعلم النساء، أن ليس إلى الآباء من الأمر شئ. رواه ابن ماجه ورجاله رجال الصحيح

هذا هو شرع الله الحكيم، ومنهاجه القويم، وسنة نبيه الحبيب. فلا يوجد أدنى شك فى حرية المرأة، فى اختيار شريك حياتها، وتقرير مصيرها، أما موضوع الولى : فهو من باب إعزاز المرأة، ورفع مكانتها والحفاظ عليها، فلا تجلس يوم العقد مع رجال غرباء عنها، ولا تتعرض فى اختيارها لمخاطر الهوى واندفاعاته، فيكون بجانبها من يساعدها فى اتخاذ قرارها، ويشير عليها بما فيه مصلحتها، فالمجتمع الإسلامى قائم على الشورى، التى تحمى من مخاطر الزلل.

ونسجل هنا حديثين آخرين، لتأكيد ما جاءت به الشريعة السمحاء فى إعطاء الحرية للمرأة، فى تقرير مصيرها، بما يتناسب مع أمانة المسئولية المنوطة بها :

- روى عن ابن عباس رضي الله عنه أن امرأة من خثعم أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله : أخبرنى ما حق الزوج على الزوجة، فإنى امرأة

أيم، فإن استطعت وإلا جلست أيما. قال : فإن حق الزوج على زوجته، إن سألها نفسها وهي على ظهر قتب، أن لا تمنعه نفسها. ومن حق الزوج على الزوجة، أن لا تصوم تطوعا إلا بإذنه، فإن فعلت، جاعت وعطشت ولا يقبل منها، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت، لعنتها ملائكة السماء وملائكة الرحمة وملائكة العذاب حتى ترجع. قالت: لا جرم ولا أتزوج أبدا. (رواه الطبرانى)

• وعن أبي سعيد الخدرى ﷺ قال : أتى رجل بابنته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن ابنتى هذه أبت أن تتزوج، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أطيعى أباك. فقالت : والذى بعثك بالحق، لا أتزوج حتى تخبرنى ما حق الزوج على زوجته ؟ قال : حق الزوج على زوجته لو كانت به قرحة فلحستها، أو انتثر منخراه صديدا أو دما ثم ابتلعته، ما أدت حقه، قالت: والذى بعثك بالحق لا أتزوج أبدا، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا تنكحوهن إلا بإذنهن. (رواه البزار بإسناد جيد وابن حبان فى صحيحه)

إنها أسمى معانى الحرية، تعرض أمامنا عبر شريعة الإسلام، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يجبرها على الزواج، ولم يأمر ولى أمرها أن يجبرها على تغيير رأيها : إنها حرية الالتزام : فمن شاءت أن تتحمل تبعات الزواج المقدسة، عن طيب خاطر ويقين بأمانة المسئولية، فلتتقدم بنفس راضية مطمئنة، وإلا فلا إكراه فى الدين، بحيث لا تقع المرأة فى مهالك عصيان الزوج، التى تجلب غضب الله ورسوله، لأنها خرجت عن طاعتهما، وتنفيذ أوامر الشريعة التى آمنت بها.

ولن تتأتى تلك الموازين الغالية، إلا بناء على الحرية المدعمة بالدين والعقل. وهذا ما حرص عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى جهاده، لإرساء دعائم الإسلام ونشر دين الله.

الفصل الثالث
حرية المرأة بعد زواجها

قد يتساءل سائل : هل هناك حرية للمرأة بعد زواجها، والمفروض أنها خاضعة لزوجها ؟! نقول إن عظمة الإسلام تتجلى فى إعطاء الحرية للمرأة فى تلك المرحلة بالذات. فالزواج فى نظر الشريعة ليس عبودية، كما حدث فى جميع العصور السابقة على الإسلام، بل هو شركة مساهمة، يساهم فيها كل من الزوجين بمجهوده، ابتغاء وجه الله ورسوله، وعلى قدر المساهمة يكون الأجر والثواب، ولذلك لا تنتفى فى تلك الشركة شخصية كل من الزوجين، بل لكل منهما دوره الخاص، المحدد فى إطار الشريعة، وبالتالى على كل منهما مسئوليته الدينية، التى يحاسب عليها فى الآخرة.

من هذا المنطلق : فالمرأة حرة التصرف فى ممتلكاتها، وحرة فى أداء عباداتها، وحرة فى خدمتها لزوجها. ولها الحق فى حسن معاشرتها وتنظيم حملها، ولها الحرية فى استمرار حياتها الزوجية أو إنهائها، وهو ما يسمى فى الشريعة بالخلع، ولها الحرية فى حضانة طفلها.

إن تلك الحريات التى تتمتع بها المرأة المسلمة، فى حياتها الزوجية، لم تنلها كلها المرأة الغربية، حتى يومنا هذا، وما نالته منها، كان منذ عهد قريب، أى بعد الثورة الصناعية فى أوربا. فلماذا يحاولن دفع نسائنا إلى دوامات شتى، بحجة التحرر والمساواة، وتاريخ النساء المسلمات راسخ فى الحرية، منذ ظهور الدعوة الإسلامية ؟ وإذا اعتلى هذا التاريخ بعض سحابات، توحى فى ظاهرها بغير ذلك، فلننفض الغبار عن شريعتنا الغراء، ليظهر وجه الحق جليا، يخرج الناس من ظلمات الشك إلى نور اليقين. وهذا ما سنحاوله قدر الجهد بعون الله تعالى.

مظاهر حرية المرأة بعد زواجها :

١- حرية المرأة فى التصرف فى ممتلكاتها :

كانوا يعتقدون فى العالم القديم، نتيجة الأوهام والإيمان بالخرافات، أن المرأة أدنى من الرجل، ومما تعرضت له المرأة نتيجة هذه الفكرة، حرمانها من الوراثة. فلم تكن تحصل على نصيبها من ممتلكات العائلة. وقد حدد الإسلام - لأول مرة فى التاريخ البشرى - حقها المعلوم فى الميراث.

ويقول ج.م. روبرتز[٢٣] :

كان مجئ الإسلام ثورة من نواح متعددة، فقد أبقى على المرأة فى وضع أدنى، ولكنه أعطاها الحقوق القانونية فى الممتلكات، وهى الحقوق التى لم تحصل عليها المرأة فى كثير من البلاد الأوروبية، حتى القرن التاسع عشر. وكانت هناك حقوق حتى للعبيد. ولم يكن فى مجتمع المؤمنين طوائف اجتماعية، ولا مكانات موروثة. وكانت هذه الثورة نابعة من دين، لم يكن يميز بين مختلف جوانب الحياة بل كان يحتضنها كلها.

والذين يشيدون بمزايا الإسلام فى رحابة صدر، ثم يرددون أن المرأة تحظى بمرتبة أدنى من الرجل فى الإسلام، إنما يناقضون أنفسهم. فمنذ العهد القديم إلى العصر الحاضر، والوراثة من أهم القضايا الاجتماعية، لأنها تحدد مراتب الأفراد فى اى مجتمع. فإقرار الإسلام بإشراك المرأة فى وراثة العقارات والممتلكات - رغم العرف السائد آنذاك - يدل بوضوح على أنه رفع مكانة المرأة، وأعز كرامتها بلا شك.

ويقول القاضى (راجندر اساشار) رئيس المحكمة العليا السابق بدلهى :

إن من الناحية التاريخية، كان الإسلام متحررا جدا وتقدميا، فى إعطاء المرأة حقوق الملكية. والحقيقة هى أنه لم يكن للمرأة الهندوسية من حقوق فى الملكية حتى سنة ١٩٥٦، حين ووفق على مشروع قانون الأحوال الشخصية الهندوسية، بينما أعطى الإسلام هذه الحقوق للمرأة المسلمة قبل ١٤٠٠ سنة[٢٤].

إن من أبرز جوانب الثورة التى قام بها الإسلام فى التاريخ البشرى : أنـــه لم يكن مجرد عقيدة فى الوجدان، بل قام بفتح أغلب أجزاء المعمورة آنذاك وحكمـها. وظلت حضارة الإسلام هى السائدة فى العالم، على مدى قرنين من الزمان، وقد أثر هذا فى كافة المجتمعات، مما أدى إلى إعادة النظر فى حقوق المرأة، فى جميع أنحاء العالم، وتم الاعتراف على وجه العموم، بضرورة منح المرأة حقوقها كالرجل تماما.

قال تعالى فى كتابه الكريم، معلنا إشراق عصر الحرية المالية للمرأة :

{للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا} (النساء ٧)

قال سعيد بن جبير وقتادة[٢٥] : كان المشركون يجعلون المسال للرجـال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا. فنزلت تلك الآية : اى الجميع فيـه سواء فى حكم الله تعالى، يستوون فى أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم، بما يدلى به إلى الميت من قرابة أو زوجية أو ولاء. وروى أحمد بسنده عن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك فى يوم أحد شهيدا، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا، ولا ينكحان إلا ولهما مال .. قال : "يقضـى الله فى ذلك" فنزلت تلك الآية، ثم نزلت آية الميراث توضح الأنصبة :

{يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ....} (النساء ١١)

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمهما فقال : اعط ابنتى سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقى فهو لك.

فكيف يهاجمون دينا أحيا حقوق الإناث من جشع المسيطرين ؟ فإن كـان فرض للذكر مثل حظ الأنثيين، فذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفـة، ومعاناة التجارة والتكسب، وتحمل المشاق والجهاد فى سبيل الله، وإعالة الأنثـى : زوجة أو أما أو أختا أو قريبة، فهذا دوره الإيمانى، ولابد من توفير موارد تعينه على أداء هذا الدور. وإذا كان هناك من ظلت الجاهلية فى أعماقه، يريد حرمان الأنثـى

من حقها في التصرف في ممتلكاتها، فإن القرآن الكريم قد وقف لهم بالمرصاد، يزيل ما ران من غشاوة على نفوسهم، ويحرر المرأة من أسرهم :

{يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا} (النساء ١٩)

قال البخاري بسنده عن ابن عباس في تفسير تلك الآية[٢٦] : كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها. فنزلت هذه الآية.

وروى على ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسيرها : كان الرجل إذا مات وترك زوجته ألقى عليها حميمه ثوبا، فمنعها من الناس، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها، حتى تموت فيرثها.

وقال زيد بن أسلم في الآية : كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية، ورث امرأته من يرث ماله، وكان يعضلها حتى يرثها، أو يزوجها من أراد، وكان أهل تهامة يسيء الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها أن تنكح إلا من أراد، حتى تفتدى منه ببعض ما أعطاها .. فنهى الله المؤمنين عن ذلك. (رواه ابن أبي حاتم)

ثم أعطى القرآن مزيدا من الحرية المالية للمرأة : فلا يحق لزوجها إذا كرهها وطلقها، أن يأخذ منها شيئا من صداقها، الذى أعطاه لها، أو أية هدايا قدمها لها، حتى لو بلغت قنطارا من المال.

{وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا} (النساء ٢٠)

وبرر القرآن ذلك بأسمى المعانى، وأنبل القيم، التى تتوج إطار العلاقة الزوجية، وتحفظ للمرأة كرامتها وحريتها : {وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا} (النساء ٢١)

فالصداق فريضة على الرجل المقدم على الزواج، حق خالص للمرأة، يبرهن على صدق الرجل وعزيمته، على إقامة علاقة زوجية قائمة على منهاج الله ورسوله. كما أنه برهان على قدرة الزوج على القيام بتكاليف الحياة الزوجية وأعبائها، صونا لكرامة المرأة، وحفظا لها من خوض معارك الحصول على لقمة العيش. وللمرأة وحدها الحرية أن تعفيه من هذا الصداق، راضية بذلك نفسها، أما أن يرغمها على مبلغ لا يليق بكرامتها، فهذا لا يصح فى الشريعة، أو يرغمها على استرداده بعد الاستمتاع بها، فهذا لا يصح أيضا. وذلك لمن كان يريد الحق البعيد عن الهوى النفسى.

{وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شئ منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا}(النساء ٤)

إن صور الحرية فى التصرف فى الممتلكات بالنسبة للمرأة، تتعدد فى الشريعة الإسلامية، حتى تكاد تبلغ عنان السماء، وتخطف بأضوائها بصائر ذوى العقول والألباب .. فالمرأة فى الإسلام لها شخصية مستقلة فى تحرير العقود وإبرامها والتصرف فى أموالها بما يمليه عليها ضميرها.

ولنا فى السنة الشريفة برهان لكلامنا بما لا يدع أى مجال للشك :

- إذا كان للزوجة مال تجب فيه الزكاة، فلها أن تعطى لزوجها المستحق من زكاتها، إذا كان من أهل الاستحقاق، لأنه لا يجب عليها الإنفاق عليه. وثوابها فى إعطائه، أفضل من ثوابها إذا أعطت الأجنبى : فعن أبى سعيد الخدرى ﷺ : أن زينب امرأة ابن مسعود قالت : يا نبى الله إنك أمرت اليوم بالصدقة، وكان عندى حلى، فأردت أن أتصدق به، فزعم ابن مسعود أنه

وولده أحق من تصدقت به عليهم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق ابن مسعود. زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم. (رواه البخاري)

ولا شك أن تلك الحرية تقيم دعائم الأسرة ولا تهدمها، تصونها ولا تبددها، لأن المرأة صاحبة الأموال. إذا أنفقت على زوجها الفقير، وحملت معه عبء الأسرة، فلن يصحب ذلك منا ولا أذى، أو إحساس بالظلم والاستغلال لها، لأنها تنفق ابتغاء وجه الله ورسوله، وزكاة لابد أن تدفعها تدعيما لإيمانها، وطهرا لأموالها فالأقربون أولى بالمعروف، وتصرف كهذا سيعود عليها بالسعادة والطمأنينة، وتوطيد أركان الأسرة.

عن أبي نجيح السلمي رضي الله عنه قال : حاصرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أيما رجل مسلم أعتق رجلا مسلما، فإن الله عز وجل، جاعل وقاء كل عظم من عظامه عظما من عظام محرره، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة، فإن الله عز وجل جاعل وقاء كل عظم من عظامها. عظما من عظام محررها من النار. (رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه)

وإفراد مخاطبة النساء بأن تحرر رقبة، هذا معناه انفراد الذمة المالية، وحريتها في التصرف، فلا يكفي أن يحرر زوجها عنها عملا بالدستور الأساسي في القرآن :

{كل نفس بما كسبت رهينة} (المدثر ٣٨)

{يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله} (الانفطار ١٩)

٢- حرية المرأة في أداء عباداتها :

المرأة مخلوق متساو مع الرجل في الثواب والعقاب، والمسئولية والجزاء، كل حسب التبعات المكلف بها، وجانب الشريعة المنوط بتنفيذها. قال تعالى في كتابه الكريم :

{فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب} (آل عمران ١٩٥)

ولهذا فقد كفل الإسلام للمرأة حريتها فى أداء عباداها، حتى لا تكون مقصرة فى جنب الله، بسبب تعنت زوجها أو بعده عن منهج الله.

- روى البخارى بسنده عن أبي سعيد الخدرى : قالت النساء للنبى صلى الله عليه وسلم: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما من نفسك، فوعدهن يوما، لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن : "ما منكم امرأة تقدم ثلاثة من ولدها، إلا كانوا حجابا من النار. فقالت امرأة : واثنين ؟ فقال : واثنين".
- وروى البخارى أيضاً عن سليمان بن حرب قال : "حدثنا شعبة عن أيوب قال : سمعت عطاء يقول : سمعت ابن عباس قال : أشهد على النبى صلى الله عليه وسلم - أو قال عطاء : أشهد على ابن عباس. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ومعه بلال، فظن أنه لم يسمع، فوعظهن وأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تلقى القرط والخاتم، وبلال يأخذ فى طرف ثوبه"(٢٧).

ويتضح بلا شك من هذين الحديثين : الحرية التى كفلها الإسلام للمرأة فى تلقى العلم والزكاة، حتى تكون على مستوى المسئولية فى عقيدتها، لأنها مسئولة عن أداء عبادتها أمام الله ورسوله.

ومن صور الحرية فى العبادة : أنه لما جمعت أم ورقة الأنصارية القرآن، فأمرها النبى صلى الله عليه وسلم بأن تؤم أهل دارها على الصلاة(٢٨).

حتى حرية الجهاد لم تُحرم منها المرأة فى صدر الإسلام : روى البخارى عن الربيع بنت معوذ : "كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم نسقى ونداوى الجرحى ونرد القتلى إلى المدينة".

وقالت أم عطية الأنصارية : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات فكنت أصنع لهم طعامهم، وأخلفهم فى رحلهم، وأداوى الجرحى، وأقوم على المرضى(٢٩).

حتى الصلاة فى المساجد : ترك لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حرية الصلاة فى المساجد، إذا أمنت على نفسها الفتنة، وإذا صلت فى بيتها، صلت وهى راضية مطمئنة، أن هذا اختيارها الأفضل، كما اختار لها رسولها الحبيب، وأن الأمر ليس فيه إكراه :

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تمنعوا نساءكم المساجد وبيوتهن خير لهن. (رواه أبو داود)

وحتى تكون الحرية فى محلها وتؤتى ثمارها : وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ضوابط لصلاة النساء فى المساجد :

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن تفلات. أى غير متطيبات. (رواه أحمد وأبو داود)

وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما امرأة أصابت بخوراً فلا تشهد معنا العشاء الآخرة. (رواه مسلم وأبو داود والنسائى).

وإكراماً للمرأة وحتى لا تُحرم من ثواب الجماعة، فقد سمح لها الشرع بإمامة النساء : فقد كانت عائشة رضى الله عنها تؤم النساء، وتقف معهن فى الصف، وكانت أم سلمة تفعله. وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم ورقة مؤذناً يؤذن لها، وأمرها أن تؤم أهل دارها فى الفرائض.

وسمح لها الشرع أيضا : بأن يؤم النساء فى دارهن رجل، إذا تعذر وجود امرأة تحفظ القرآن .. روى أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط بسند حسن: أن أبى بن كعب جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله عملت الليلة عملا. قال : "ما هو؟" قال : نسوة معى فى الدار، قلن إنك تقرأ ولا نقرأ، فصل بنا، فصليت ثمانيا والوتر. فسكت النبى صلى الله عليه وسلم. قال : فرأينا سكوته رضا.

وفريضة الحج : أباح الشرع للمرأة أن تخرج للحج الفريضة، إذا توفر لها المحرم، ويستحب لها أن تستأذن زوجها، فإن أذن لها خرجت، وإن لم يأذن لها تعنتا. خرجت بغير إذنه، لأنه ليس للرجل منع امرأته من حج الفريضة، لأنها عبادة وجبت عليها، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ولها أن تعجل به لتبرئ ذمتها. كما لها أن تصلى أول الوقت، وليس له منعها، ويلحق به الحج المنذور، لأنه واجب عليها كحجة الإسلام. وأما حج التطوع، فله منعها منه، لما رواه الدار قطنى عن ابن عمر ﷺ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأة كان لها زوج ومال، فلا يأذن لها فى الحج – قال : ليس لها أن تنطلق إلا بإذن زوجها"[٣٠].

وهكذا فإن النبى صلى الله عليه وسلم أعطى الحرية للمرأة فى أداء عباداتها، التى فرضها الله عليها، حتى تؤدى واجبها الإيمانى، الذى تحقق به عبوديتها لله وحده. أما التطوع فلابد أن يكون بإذن زوجها، حتى لا يفتح الباب على مصراعيه، ويكون بابا لهروب المرأة من التزاماتها العائلية، وهى أيضا أمانة فى عنقها يجب أداؤها، والتقصير فيها قد يعرض الأسرة الإسلامية للتشتت أو الانهيار والإسلام يريد أسرة قوية، تبنى عليها الأمة دعائمها المتينة. وتنطلق إلى آفاق رحبة من التقدم والرقى، الذى يليق بمكانتها كخير أمة أخرجت للناس، إذا اتبعت أحكام الشرع الحنيف. وقام كل بدوره المرسوم له، فى إطار تلك الشريعة السامية.

٣- حرية المرأة فى خدمة زوجها :

يعتبر هذا الموضوع من المواضيع الحساسة، التى يكثر الخلاف عليها، حيث أوجب طائفة من السلف والخلف، خدمتها له فى مصالح البيت وقال أبو ثور : عليها أن تخدم زوجها فى كل شئ. ومنعت طائفة وجوب خدمته عليها فى شئ، وممن ذهب إلى ذلك مالك والشافعى وأبو حنيفة، رحمهم الله، وأهل الظاهر قالوا لأن عقد النكاح إنما اقتضى الاستمتاع، لا الاستخدام، وبذل المنافع. قالوا : والأحاديث المذكورة على خدمة فاطمة لزوجها على، وخدمة أسماء لزوجها الزبير، إنما تدل على التطوع، ومكارم الأخلاق منها[٣١].

أما من أوجب خدمتها : فيحتجون بالحديث الشريف "اتقوا الله فى النساء فإنهن عوان عندهم" والعانى الأسير، ومرتبة الأسير خدمة من هو تحت يده .. فإننا نحاول الرد عليهم، بما تيسر لنا من الجهد، وبعون من الله وتوفيقه.

إن النبى الكريم عندما أوصى الرجال بالنساء، فى كلمة اتقوا الله، فمعناه احرصوا على مرضاة الله فى النساء، لأنهن بارتباطهن معكم بعقد الزواج، أصبحن لا يملكن من أمرهن ما كان قبل الزواج، حيث للزوج حقوق شرعية يجب مراعاتها، وأهلها الله لمهمة الحمل والإنجاب والرضاعة وتربية الأبناء، وكلها أمور شاقة تستوجب عون الزوج ورحمته بها، لأنه إذا أثقل عليها، أصبحت مثل السيدة التى استجارت فى سورة المجادلة : لها أطفال إن تركتهم إلى أبيهم وهجرت المنزل ضاعوا، وإن ضمتهم إليها جاعوا. وهذا لا شك نوع من الأسر، لابد معه من الرحمة والرأفة. والله وضع فى كتابه الكريم قاعدة أساسية، تحكم سلوك البشر جميعا:

{ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} (البقرة ٢٨٦)

وحتى العبد الرقيق، أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب من المؤمنين أن يعاملوهم برفق، ولا يكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون :

فى رواية للترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إخوانكم جعلهم الله فتية تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه من طعامه، وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه. فليعنه عليه.

هذا بالنسبة للعبد المملوك، فما بال المرأة الحرة، التى أقبلت على الزواج، إيمانا بالله واتباعا لسنة رسول الله، واستحل الرجل ما استحل منها بأمانة الله. وهى شريكة الحياة وصانعة الأجيال، فهل تفرض عليها الشريعة خدمة زوجها فرضا، حتى لو كان عندها من الأعباء ما ينوء به كاهلها، والزوج قادر على إحضار خادم لها ؟

إن شريعة الإسلام التى قوامها العدل والمساواة والحرية لا تفرض ذلك فرضا على الزوجة، بل تجعله تطوعا واختيارا، ومحبة وتعاونا بين الزوجين، إذا

ضاقت بهما السبل، وقصرت ميزانيتهما عن إحضار خادم. ورسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه وهو أشرف الخلق، كان يعمل عمل أهله : فيرفى ثوبه، ويخصف نعله، ويغسل ملابسه بيده، بل كان يكنس بيته أحيانا، كما جاء فى السيرة النبوية. فأين هذا من رجال يجلسون فى راحة، ويتركون زوجاتهم يعانين الأمرين من خدمة البيت، مدعين أن هذا اختصاصها، وأن الرجال قوامون على النساء. ونسوا أن القوامة معناها فى المقام الأول مسئولية، وأن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أم ضيع.

وتأكيدا لكلامنا هذا، نسمع هذا الحديث النبوى، الذى يعتبر دستورا فى توضيح الحقوق والواجبات لكل من الزوج والزوجة :

- عن عمرو بن الأحوص الجشمى ﷺ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يقول : بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ. ثم قال : ألا واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا. ألا إن لكم على نسائكم حقا، ولنسائكم عليكم حقا : فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن (رواه ابن ماجه والترمذى)

والواضح من ذلك الحديث : أن حقوق الرجل على المرأة معنوية فى المقام الأول، ترتبط بأساسيات العقيدة، أما الأعمال البدنية، فقد جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم تطوعية، تنال بها المرأة الأجر والثواب، وتستعين على ذلك بذكر الله :

روى البخارى ومسلم أن فاطمة رضى الله عنها أتت النبى صلى الله عليه وسلم تشكو إليه ما تلقى فى يديها من الرحاء. وتسأله خادمة فقال : ألا أدلكما

على ما هو خير لكما مما سألتما : إذا أخذتما مضاجعكما، فسبحا الله ثلاثا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثين، وكبرا أربعا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم.

والذين يستدلون من هذا الحديث على وجوب خدمة المـــرأة لزوجـها يجانبون الحقيقة : فالخطاب للمثنى أى يشمل الزوج والزوجة عملا بقول الله تعالى :

{ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة} (البقرة ٢٢٩)

فالآية تعطى المرأة من الحقوق، مثل ما للرجل عليها، فكلما طولبت المرأة بشئ، طولب الرجل بمثله، والدرجة التى يحظى بها الرجل. هى لتنظيم سير العمـــل داخل الأسرة، فلابد من قائد فى أى وحدة إنتاجية، لتوزيع الاختصاصات، وتحمـل المخاطرة فى القرار .. فكل قرار لابد أن يحمل نسبة مخاطرة، ولابد من وجود قـائد يساعد على اتخاذ قرار، يضمن أقل خسارة ممكنة، أو أقصى ربح ممكن، وتلك هـى مسئولية الرجل، لأنه أقل عاطفة من المراة، فيكون قراره أقـــرب إلى روح الحيـاة العملية، وما يكتنفها من صعوبات. وعندما حكم رسول الله صلى الله عليه وســلم بين على بن أبى طالب رضي الله عنه كرم الله وجهه، وبين زوجته فاطمة رضى الله عنـــها، فجعل على فاطمة خدمة البيت، وعلى على العمل والكسب .. عندما حكم بهذا، لم يكن فرضا على كل النساء، إنما لتكون السيدة فاطمة مثلا وقدوة، لكل النســـاء اللاتى يعانين من شظف العيش، وتجبرهن ظروف المعيشة على معاونة أزواجـــهن : فالرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل شعاره : ليكن أهل محمد أول من يجوعوا إذا جاع الناس، وآخر من يشبعوا إذا شبع الناس.

فسلام عليك يا سيدى يا رسول الله، يا من وصفك الله بأنك بـــالمؤمنين رءوف رحيم. فلم تجبر النساء على خدمة أزواجهن، وخاصة إذا توفـــر يسـرهم وقدرتهم على توفير خادم، ولم تترك النساء تضيع تحت ضغط متطلبـــات الحيـاة، فجعلت ابنتك أشرف نساء العالمين. أسوة حسنة لكل زوجـــة تبغـى الله والـدار الآخرة، فتخدم زوجها راضية قانعة بثواب الله لها، لأنه قال وقوله الحق :

{فمن تطوع خيرا فهو خير له} (البقرة ١٨٤)

٤- حرية المرأة فى تنظيم حملها ورضاع طفلها :

الأصل فى الشريعة : أن الإسلام يرغب فى كثرة النسل، لأن ذلك مظهر من مظاهر القوة والمنعة للأمة :

عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى أصبت امرأة ذات حسب ومنصب ومال، إلا أنها لا تلد أفأتزوجها ؟ فنهاه، ثم أتاه الثانية، فقال له مثل ذلك، ثم أتاه الثالثة فقال له : تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم. (رواه أبو داود والنسائى واللفظ له)

إلا أن الإسلام مع ذلك لا يمنع من تنظيم النسل، حتى يشب الأبناء أقوياء، فى ظل الرعاية الكافية. ويبيح التحديد فى حالة ضعف المرأة ضعفا عامد، لا يتيسر معه القيام بمشاق الحمل، أو تعرضها لمرض، يكون فيه خطورة على حياتها إذا حملت. ففى مثل هذه الحالات يباح تحديد النسل. بل إن بعض العلماء رأى أن التحديد فى هذه الحالات لا يكون مباحا فقط، بل يكون مندوبا إليه.

بل ذهب كثير من أهل العلم إلى إباحته مطلقا، واستدلوا لمذاهبهم بما يأتى[٣٢] :

- روى البخارى ومسلم عن جابر قال : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل.
- وروى مسلم عنه قال : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا.
- وقال الشافعى رحمه الله : ونحن نروى عن عدد من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أنهم رخصوا فى ذلك ولم يروا به بأسا.

وبعض الأئمة كالأحناف يرون أن يباح العزل إذا أذنت الزوجة، ويكره من غير إذنها.

وهكذا نرى أحكام الشريعة السمحاء، تترك للمرأة قدرا كبيرا من الحرية فى تنظيم نسلها. لأنها صاحبة العناء الأكبر والمسئولية العظمى فى تلك المسألة،

وبالمقابل فلها الأجر العظيم والثواب الجزيل عند الله، لأنها تقوم بمهمة مقدسة فى الحياة، حيث تتحمل مشاق حمل ووضع وتربية، أغلى وديعة فى الوجود، ألا وهو الإنسان.

ويرى أهل الظاهر ان منع الحمل حرام، مستدلين بما روته جذامة بنت وهب : أن أناسا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزل ؟ فقال : "ذلك هو الوأد الخفى". وأجاب الإمام الغزالى عن هذا فقال : ورد فى الصحيح أخبار صحيحة فى الإباحة. وقوله : "إن الوأد الخفى كقوله "الشرك الخفى" وذلك يوجب كراهيته، كراهة لا تحريما. والمقصود بالكراهة خلاف الأولى. كما يقال : يكره للقاعد فى المسجد أن يقعد فارغا، لا يشتغل بذكر أو صلاة.

فلتعلم النساء أن لهن الحرية فى تنظيم نسلهن، ولكن هناك ما هو خير من ذلك، هو جزاء الله الذى يفوق كل متع الدنيا وعنائها، وثوابه الذى لا يعدله أى هدف امتنعن عن الحمل لأجله، فلابد أن يكون للمنع أسبابه الملحة، التى يلقين بها الله يوم القيامة، بدون خزى أو تقصير، لأنه قال وقوله الحق :

{بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره} (القيامة ١٤، ١٥)

وبالنسبة لرضاع طفلها : فقد أعطى لها الإسلام مهلة حتى عامين كاملين، إن أرادت أن تتم الرضاعة، وعلى الزوج أن يراعيها خلال تلك الفترة، حفاظا على النشئ الذى هو عماد الأمة، وأن يكون موضوع الرضاعة عن تفاهم وتشاور بينهما، وكذلك الفطام، لتحقيق مصلحة المولود، فلابد من الحفاظ على حياته، بما لا يضر الأم أو الأب. فإذا كانت الأم عاجزة عن الرضاعة، لأى سبب من الأسباب، فلابد من توفير مصادر رضاعة أخرى.

قال تعالى فى كتابه الكريم :{والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة. وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها. لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك. فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا

جناح عليهما. وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير} (البقرة ٢٣٣)

والملاحظ فى الآيات أنها تفيض رحمة وسماحة ورأفة، على كل فرد من أفراد الأسرة، فلا ضرر ولا ضرار. المهم هو المصلحة العامة، والوصول بالمولود إلى بر الأمان، لأنه لا حول له ولا قوة. فعلى الأم أن ترضعه حرصا على حياته. فإن عجزت – لأى سبب من الأسباب – فعلى الأب أن يوفر له مرضعة، أو أى وسيلة من وسائل التغذية حسب العصر، وكل ذلك يتم فى إطار الطاقة البشرية، فلابد أن تمتلئ القلوب برحمة الإيمان، حيث لا يكون هناك ضرر لأى فرد فى الأسرة.

وفى حالة الطلاق: فإن المرأة لا تجبر على الرضاع قهرا، ولكن من حقوقها أن ترضع طفلها ولها تركه إذا شاءت[٣٣]، فقد تكون المرأة مطلوبة للزواج، وزوجها الجديد لا يسمح لها باصطحاب طفلها.

أما إذا لم توجد المرضع غيرها، وخيف على الطفل من الضياع، فتلزم بتربيته وإرضاعه، ولها أجرة المثل: {أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى} (الطلاق ٦)

إن تلك الآيات وما قبلها وما بعدها من سورة الطلاق: لتبين عظمة الشريعة الإسلامية فى توفير الرعاية للمرأة، فى أشد مرحلة من مراحل حياتها، ألا وهى هدم حياتها الزوجية، وخصوصا إذا كان القرار من الرجل. فأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين، موجها الخطاب إلى شخص النبى صلى الله عليه وسلم بقواعد أساسية فى اتخاذ تلك الخطوة العصيبة، حرصا على كيان الأسرة، وإحاطة المرأة بسياج منيع، يحافظ عليها من التشرد والضياع، وإتاحة الفرصة للرجل، لمراجعة نفسه فيما اتخذه من قرار.

ومن شدة العناية بالمرأة : فى المولى عز وجل الرجال عن التضييق على النساء فى المسكن والنفقة، حتى يضطروهن إلى الخروج من بيوتهن، والتعرض لعاديات الزمن. وإن كانت المطلقة حاملا، فإن المسئولية على الرجل تتضاعف، إذ يجب عليه أن ينفق عليها – طوال مدة الحمل – حتى تضع حملها[٣٤]. فإذا ولدت ورضيت أن ترضع له ولده، فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة، لأن الأولاد ينسبون إلى الآباء، وتلك مسئوليتهم. مسئولية الدرجة التى جعلها الله للرجال على النساء.

وإن عسر الاتفاق بين الزوجين على أجر الرضاعة، فعلى الوالد أن يستأجر لولده مرضعة، حفاظا على حياته وقياما بمسئوليته، فهو قد اتخذ قرار الطلاق، وعليه أن يتحمل تبعاته.

إن الإسلام دين الرحمة، الذى جاء به رسول الرحمة، فلنعتصم به، لأن فيه عزنا وشرفنا وحريتنا، وكل ما نبغى من معانى كريمة.

٥- حرية المرأة فى استمرار حياتها الزوجية أو إنهائها :

الأصل فى الزواج فى الإسلام : أنه أسمى علاقات الحياة، وأجل نعم الله على الإنسان، وجعله الله آية من آيات الله فى الكون، فى سياق تعدد آيات الله فى سورة الروم .. فقال جل شأنه : { ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون} (الروم ٢١)

فأولى الألباب والعقول، إذا تفكروا فى آيات الله، عرفوا أهمية الزواج فى الإسلام، القائم على المودة والرحمة، لتحقيق هدف الاستقرار، والسكن النفسى لجميع أفراد الأسرة.

ولذلك وضعت الشريعة ضمانات عدة لاستقرار الحياة الزوجية :

- أولها مبدأ التراضي بين الطرفين، فأساس العقيدة الإسلامية هو "لا إكراه في الدين" لقيام البنيان الإسلامي على دعائم وطيدة، من الإخلاص والعطاء والتفاني، لا لغرض دنيوي زائف، وإنما ابتغاء وجه الله ورسوله. وقد تكلمنا عن هذا المبدأ في "حرية المرأة في اختيار شريك حياتها".
- فرض الله للمرأة "مهر الزواج" كعلامة مادية على استعداد الرجل للإنفاق، والقيام بمسئوليته تجاه زوجته وأبنائه فيما بعد، حماية للمرأة من عناء الحياة للحصول على لقمة العيش، ويكفيها ما ستكابده من مشقة في الحمل والولادة والرضاعة والتربية، لتخريج جيل إسلامي قوي قادر على تحمل تبعات الرسالة الإسلامية.

وقد تكلمنا عن هذه النقطة أيضا في "حرية المرأة في التصرف في أموالها"

- فرض الله المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات في مؤسسة الزواج "العائلة" كنوع من توزيع المسئولية الجسيمة على الطرفين:

{ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة} (البقرة ٢٢٨)

إن تلك الدرجة التي للرجال على النساء هي التي وضحها المولى عز وجل في سورة النساء : **{الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم}** (النساء ٣٤)

إن تلك القوامة لا تعني أن الرجل أسمى مرتبة من المرأة، بل قد جرى هذا التعيين لدواع إدارية[٣٥]. فالمعروف أن الأنظمة الديمقراطية تعتبر كافة المواطنين متساوين في الدرجة، ومع ذلك يتولى شخص من بينهم السلطة لدى الحكومة، وهكذا يتم تعيينه حاكما أي "قواما".

وليس معناه أن هذا المسئول التنفيذي، أولى وأسمى من الآخرين من مواطني البلاد.

ومن هذا المنطلق يمكن تفسير كثير من الأحاديث النبوية الشريفة عن المرأة :

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "... المرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ..."[٣٦]. وهذا معناه أن المرأة تتولى منصب إدارة شئون أسرتها (أصغر دائرة سياسية فى الأمة) وهو منصب يستوجب التشريف والتكريم، كأى منصب هام فى الدولة.
- سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى النساء خير ؟ قال : التى تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فى نفسها ومالها، بما يكره[٣٧].

وهذه الطاعة تستلزم مسئولية الرجل بالقوامة فى النظام العائلى، فالشخص الذى يتولى السلطة فى دولة ما، بإمكانه تسيير دفة الحكم بالأسلوب الأمثل، ما دام شعب تلك البلاد مقتنعا بضرورة طاعة الحاكم، وهذا ما هدفت إليه الشريعة، لتحقيق الإصلاحات المطلوبة فى الأسرة، وفى نفس الوقت لم تحرم المرأة من حق التشاور مع الزوج، وإبداء وجهة نظرها فى قرارات حياتهما المصيرية، مثل فطام الأبناء وغيرها :

{فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما} (البقرة ٢٣٣)

وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه : "إنى لو أمرت شيئا أن يسجد لشئ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذى نفسى بيده، لا تؤدى المرأة حق ربها، حتى تؤدى حق زوجها".

وكلمة "لو" هنا "حرف امتناع لامتناع" فالسجود المطلق لله، وطاعة الزوج مستمدة من طاعة الله، والإيمان بشريعته، لتحقيق الخير والفلاح للأسرة المسلمة، فالعصيان لن يحقق الثمار المرجوة لبناء الأسرة، وبناء النفوس الناتجة عن تلك الأسرة، فلابد من الطاعة، لتحقيق الصالح العام فى اتخاذ القرار.

وحرصا على تحقيق الاستقرار للأسرة المسلمة، وإضفاء جو من الهناءة والسرور عليها، لتذوق نعمة الله العظمى، وآياته البينات، بأن جعل لنا من أنفسنا

أزواجا – فرضت الشريعة السمحاء على الرجل حسن معاملة الزوجة، لأنها الطرف الذى يتميز بالضعف وتدفق العاطفة، فلابد من إشباع تلك النوازع النفسية فيها، حتى تقوم بواجبها خير قيام.

قال تعالى فى كتابه الكريم : {وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا} (النساء ١٩)

وهذا أمر مطلق للرجل بمعاملة المرأة بالحسنى، سواء أكانت الزوجة توافق هواه أو لا توافقه، لأى سبب كان .. وقد حظر المولى عز وجل التزوج بأكثر من واحدة، لمن لا يستطيع الوفاء بحسن التعامل، مع الزوجات جميعا على قدم المساواة : {فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة} (النساء ٣)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى"[٣٩]. وقال : "إنما النساء شقائق الرجال"[٤٠]. وقال : "استوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا"[٤١].

وتشبيه الرسول للمرأة (بالضلع) لأجل وضعها النفسى المتميز، الذى يحتاج إلى ضرورة معاملتها بالرفق، وعدم التعسف معها، لأن التعسف يناقض طبيعة الأنثى، ويسبب الفساد، ولا يؤدى إلى الإصلاح[٤٢].

فى إطار تلك المفاهيم الإيمانية : أقامت شريعة الإسلام نظام الأسرة المسلمة، على أسس عريقة من العقيدة، ولكن قد يحدث أن تختل الموازين النفسية لأسباب متعددة، وهنا أباح الإسلام للمرأة حرية الاختيار : إما استمرار حياتها الزوجية، حرصا على المصلحة العامة، ابتغاء وجه الله ورسوله، وإما إنهائها، خوف ارتكاب معصية ألا تقيم حدود الله :

(١) فإذا خافت المرأة نشوز زوجها، وإعراضه عنها، إما لمرضها أو لكبر سنها، أو لدمامة وجهها، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما، ولو كان فى الصلح تنازل الزوجة عن بعض حقوقها، ترضية لزوجها :

لقول الحق سبحانه :

{ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا، والصلح خير } (النساء ١٢٨)

وروى البخارى عن عائشة قالت فى هذه الآية : "هى المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها، فيريد طلاقها، ويتزوج عليها : تقول : أمسكنى ولا تطلقنى، وتزوج غيرى، فأنت فى حل من النفقة على والقسمة لى".

وروى أبو داود عن عائشة أن سودة بنت زمعة حين أسنت، وفرقت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : يا رسول الله يومى لعائشة فقبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤٣].

(٢) وإذا كرهت الزوجة استمرار الحياة الزوجية، فقد أباح لها الإسلام أن تتخلص من الزوجية بطريق الخلع، بأن تعطى الزوج ما كانت أخذت منه باسم الزوجية، لينهى علاقته بها.

وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

{ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله. فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به} (البقرة ٢٢٩)

والخلع الذى أباحه الإسلام، مأخوذ من خلع الثوب إذا أزاله، لأن المرأة لباس الرجل، والرجل لباس لها، كما قال المولى تبارك اسمه :

{هن لباس لكم وأنتم لباس لهن} (البقرة ١٨٧)

ويسمى الفداء، لأن المرأة تفتدى نفسها بما تبذله لزوجها. وقد عرفه الفقهاء بأنه "فراق الرجل زوجته ببدل يحصل له".

والأصل فيه ما رواه البخارى والنسائى عن ابن عباس قال :

"جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ما أعتب عليه فى خلق ولا دين، ولكنى أكره الكفر

فى الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتردين عليه حديقتــه ؟ قالت : نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقبل الحديقة وطلقــها تطليقة[٤٤].

وهكذا يتبلور الهدف السامى للزواج : فهو شريعة مقدسة، وأوامر ربانية، ومنهاج عقائدى، يتبادل فيه الزوجان مشاعر الوفاء والإخلاص، المســتمدة مــن أحكام الدين القيم، ومن لم يجد فى نفسه القدرة على الاستمرار، فى حدود تلــك المفاهيم النبيلة والمبادئ العريقة، فعليه بالانسحاب من ذلــك الميــدان، بشــرف وشجاعة.

وبذلك تتنفس المرأة نسمات الحرية العذبة، فى ظل منهج الله وسنة رسوله.

٦- حرية المرأة فى حضانة طفلها :

يهدف الشرع فى جميع أحكامه إلى استقرار الأسرة، حتى يشب الطفــل فى أحضان والديه، ينال من رعايتهما، وحسن قيامهما عليه، ما يبنى جسمه، وينمــى عقله، ويزكى نفسه، ويعده للحياة إعدادا سليما، يساهم فى نهضة أمته ورقيها.

فإذا حدث أن افترق الوالدان وبينهما طفل، فالشرع جعل الأم أحق مــن الأب فى حضانة الطفل، ما لم يقم بالأم مانع يمنع تقديمها (مثل زواجها من آخر، أو عدم توفر الشروط التى يجب توافرها فى الحاضنة) أو بالولد وصف يقتضى تخيــيره (وهو الاستغناء عن خدمة النساء).

وسبب تقديم الأم : أن لها ولاية الحضانة والرضاع، لأنها أعرف بالتربيــة وأقدر عليها، ولها من الصبر فى هذه الناحية ما ليس للرجل، وعندها من الوقت مــا ليس عنده. لهذا قدمت الأم رعاية لمصلحة الطفل[٤٥].

فعن عبد الله بن عمرو أن امرأة قالت : يا رسول الله إن ابنى هذا كــــان بطنى له وعاء، وحجرى له حواء، وثديى له سقاء، وزعم أبوه أنه ينزعه منى فقــال : أنت أحق به ما لم تنكحى". أخرجه أحمد وأبو داود والبيهقى والحاكم وصححه[٤٦].

وعن يحيى ابن سعيد قال : سمعت القاسم بن محمد يقول : كانت عند عمر ابن الخطاب امرأة من الأنصار، فولدت له عاصم بن عمر، ثم إن عمر فارقها، فجاء عمر قباء، فوجد ابنه عاصما يلعب بفناء المسجد. فأخذ بعضده فوضعه بين يديه على الدابة، فأدركته جدة الغلام، فنازعته إياه حتى أتيا أبا بكر الصديق. فقال عمر : ابنى. وقالت المرأة : ابنى. فقال أبو بكر : خل بينها وبينه. فما راجعه عمر الكلام. (رواه مالك فى الموطأ).

قال بن عبد البر : هذا الحديث مشهور من وجوه منقطعة ومتصلة تلقاه أهل العلم بالقبول.

وفى بعض الروايات أنه قال له : الأم أعطف وألطف وأرحم، وأحنى وأخير وأرأف، وهى أحق بولدها ما لم تتزوج.

وهذا الذى قاله أبو بكر ﷺ من كون الأم أعطف وألطف، هو العلة فى أحقية الأم بولدها الصغير.

وكان مذهب عمر مخالفا لمذهب أبي بكر، ولكنه سلم للقضاء ممن له الحكم والإمضاء، ثم كان بعد خلافته يقضى به ويفتى. ولم يخالف مذهب أبى بكر، ما دام الصبى لا يميز، ولا مخالف لهما من الصحابة. (أفاده ابن القيم).

والمرأة المطلقة تستحق أجرة حضانة، كما تستحق أجرة الرضاع، وخاصة بعد انقضاء العدة، لأنها فى العدة تكون لها "نفقة العدة". وذلك لقول الله تعالى :

{فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى} (الطلاق ٦).

وتلك الآية الكريمة تبيح للمرأة حرية من نوع آخر، فلها أن تقبل رضاعة ابنها وحضانته، أو ترفض ذلك، وعلى الأب توفير من يحل محلها.

وهكذا فالإسلام احترم المرأة ومشاعرها فى الحالتين : ففى حالة رغبتها فى الاحتفاظ بصغيرها، أباح لها ذلك لتشعر معه بدفء الحنان والمودة والرحمة، وفى حالة تعسر ظروفها واضطرارها إلى الزواج من آخر، ليضمن لها الحياة الكريمة،

فالإسلام لا يجبرها على الاحتفاظ بصغيرها، وخاصة أن هناك كثيرا من الرجال لا يرغبون فى تربية أبناء غيرهم.

إنه بلا شك دين الرحمة ودين اليسر، ودين الحياة الحرة الكريمة، وصدق الله العظيم إذ يقول: {ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون} (الروم ٣٠)

فإلى أى شئ تطمع النساء بعد تلك الكرامة، التى أعزها بهن دين الإسلام. هل يطمعن فى مساواة خيالية، تدفعهن إلى خوض ميادين الحياة بمعاناتها، بحثا عن لقمة العيش، بعدما ادخرتهن الشريعة لدور أجل وأعظم من ذلك، وهو تنشئة الأجيال بما يحقق التنمية الاجتماعية للأمة، التى هى مفتاح كل تقدم بعد ذلك؟ أم يطمعن فى مساواة تلغى وجودهن كنساء أصلا، وتشقيهن شقاء تنتفى معه أنوثتهن، ودورهن الحقيقى فى الحياة، كما حدث للنساء اللائى ينـاصرن تحرر المرأة فى الغرب؟ أم يطمعن فى تحرر يلغى احتياجهن للرجال، ويوقعهن فى مهالك لا تنتهى، لأنهن يلجأن فى إشباع غريزتهن، إلى طرق ما أنزل الله بها من سلطان؟![٤٧]

ولمزيد من التفاصيل: يمكن الرجوع إلى المرجع المذكور فى رقم (٤٧) لمعرفة تبعات المساواة غير الطبيعية، وما ينتج عنها من مشكلة انهيار الأسر، وبالتالى انهيار المجتمعات، ومشكلة الأطفال الاصطناعيين، وما يتبعها من طفولة مشردة، وزيادة نسبة الانتحار لدى الشباب، ومساوئ اجتماعية لا تعد ولا تحصى.

لقد برز فى الولايات المتحدة اتجاه جديد، يدعو إلى إعادة النظر فى مفاهيم الحرية، التى ظنوا أنها مفتاح التقدم، فإذا هى تنتهى بالمجتمع إلى شفا الهاوية. إلا أن المرأة الحديثة لم تعد تقبل باستئناف دورها كربة بيت، مما أدى إلى انتهاجها طريقا صعبا، يجعلها تتحمل الأعباء المنزلية (الداخلية) والمعيشية (الخارجية) فى آن واحد.

وللمرأة حرية الاختيار، فلها أن تكتفى بعبء واحد، تأخذ معه أجرا مضاعفا من الله، إذا هى أخلصت النية فى أدائه، ولها أن تجمع بين عبء آخر، ما

فرضه الله عليها. ولكنها تحملته تحت دواعي نفسية وهمية، بحجة الحرية والمساواة وإثبات الذات. ويكفينا أن نردد لها قول المولى عز وجل :

{ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون } (النحل ١١٢)

فالنساء حررهن الشريعة، ووصلت بهن إلى أعلى مراتب الحرية، وصانتهن من كل ما يخدش حياءهن، وينال من كرامتهن .. فإن هن تمردن على أصول الشريعة، فلا يلومن إلا أنفسهن، عندما يشعرن بالشقاء، حتى لو حققن أعلى المراتب الوظيفية، فالإسلام أراد لهن الخير والرقي، وهن – بجهلهن – اخترن طريقا صعبا يكتنفه المخاطر. فلما زال عنهن رداء الحرية والعزة، الذى أسبغته عليهن الشريعة، رددن مع الجهلاء دعاوى كاذبة، بأن الإسلام أزرى بمكانة المرأة. فكيف يستقيم ذلك مع ما عرضناه من مدارج الشريعة لتحقيق حرية المرأة ؟! ونزيد الأمر إيضاحا وبرهانا بتوضيح تلك الأصول التشريعية فى الزواج، لضمان الحفاظ على كرامة المرأة إلى أقصى الحدود.

٧- أحكام الزواج فى الشريعة تحقق حرية المرأة فى أجلى صورها :

إن المتأمل فى الشريعة الإسلامية بعقل واع وفكر ثاقب، وتحرر من نوازع الهوى، التى تضع غشاوة على البصائر، يكاد يجزم بأن الشريعة تبلغ قمة سلمقة، فى الحنو على المرأة والحفاظ عليها، وتحقيق أعلى مراتب العزة والكرامة لها. ولا غرو فى ذلك، فالشريعة تنزيل من الحكيم الخبير، الذى يعلم خصائص الشخصية الدفينة لكل من الرجل والمرأة، ويعلم ما فيه صلاحهما. ويحرص المولى عز وجل على صيانة المرأة، من طمع الرجل فى كل صوره، لأن المرأة مخلوق رقيق حساس، تغلب عليها نوازع العاطفة، التى تؤهلها للقيام بدورها فى الحياة بصدر رحب، مهما كانت صعوبات الحياة ومعاناتها. فإذا لم تتكفل الشريعة بحماية المرأة، بسياج متين من

القوانين التشريعية، فقد تضيع فى خضم الحياة، إذا ملك أمرها الجاهلون من الرجال.. لذلك فعلى النساء المسلمات بعد أن يعلمن علم اليقين، الدور العظيم الذى قامت به الشريعة الغراء، للحفاظ على كرامتهن، وتحريرهن من كل صور الغش والخداع والظلم والمهانة، عليهن أن يسجدن لله شكرا مرددات دعاء الملائكة الأبرار : "سبحانك ما عرفناك حق معرفتك. سبحانك ما عبدناك حق عبادتك". ويرددن دعاء سيدنا يونس فى بطن الحوت وهو يشبه ظلمات الجاهلية التى نعيشها :

{لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين}. (الأنبياء ٨٧)

وتلك الأحكام التى جاءت بها الشريعة كثيرة، وتفيض بها كتب الفقه ولكننا سنأخذ منها بما يتيسر به المقام، ويفى بغرضنا فى إظهار وجه الحق المبين، والرد على دعاوى الجاهلين [٤٨]:

أ- اختيار الزوج :

على الولى أن يساعد كريمته على اختيار الزوج الصالح، ليعينها على أداء دورها فى الحياة بسعادة وارتياح، لأنها تشعر أنها تقوم بوظيفة مقدسة، تبتغى بها مرضاة الله ورسوله، فمهما لاقت من صعوبات ومعاناة، ستجد أن الأمر يسير، لأنها مع زوج صالح، يعينها على وحدة الهدف وسموه، ونبل الوسائل التى يستعينان بها على شرف المقصد. قالت عائشة رضى الله عنها : "النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته".

وقال صلى الله عليه وسلم : "من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها". رواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس، ورواه فى الثقات من قول الشعبى بإسناد صحيح.

ب- شروط لزوم عقد الزواج :

إن المقاصد التى شرع من أجلها الزواج : هى دوام العشرة الزوجية، وتربية الأولاد، والقيام على شئونهم، فلابد أن يقوم عقد الزواج على أسس متينة

من الشرف، لأنه أسمى العقود، التى يمكن أن يقوم بها كل من الرجل والمرأة فى حياقما.

ومن تلك الشروط :

أن يستوفى أركانه وشروط صحته وشروط نفاذه.

- فمن أهم أركانه : الإيجاب والقبول : فلا يصح إجبار المرأة على زواج لا ترضاه (وقد تقدم ذلك فى حرية المرأة فى اختيار شريك حياتها).
- ومن شروط صحته : أن يكون على سنة الله ورسوله.

وللمرأة أن يكون لها شروط، ما لم تتضمن تغييرا لحكم الله ورسوله كاشتراط العشرة بالمعروف، والإنفاق عليها، وكسوتها وسكناها بالمعروف، وأنه لا يقصر فى شئ من حقوقها، ويقسم لها كغيرها .. وأنها لا تخرج من بيته إلا بإذنه، ولا تنشز عليه، ولا تصوم تطوعا بغير إذنه، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه، ولا تتصرف فى متاعه إلا برضاه، ونحو ذلك.

- وليس للزوج أن يشترط ما كان منافيا لمقتضى العقد، مما يهين بكرامة المرأة وحريتها[٤٩] : كاشتراط ترك الإنفاق والوطء، أو كاشتراط أن لا مهر لها، أو يعزل عنها، أو اشتراط أن تنفق عليها، أو تعطيه شيئا، أو لا يكون عندها فى الأسبوع إلا ليلة، أو شرط لها النهار دون الليل.
- ومن الشروط ما يعود نفعه وفائدته إلى المرأة : مثل أن يشترط لها ألا يخرجها من دارها أو بلدها، أو لا يسافر بها، أو لا يتزوج عليها، ونحو ذلك. ومن العلماء من رأى أن الزواج صحيح، وأن هذه الشروط ملغاة، ولا يلزم الزوج الوفاء بها .. ومنهم من ذهب إلى وجوب الوفاء بما اشترط للمرأة، فإن لم يف لها فسخ الزواج .. وهذا مذهب عمر بن الخطاب وسعد بن أبى وقاص ومعاوية وعمرو بن العاص وعمر بن عبد العزيز وجابر بن زيد وطاووس والأوزاعى وإسحاق والحنابلة واستدلوا بما يأتى :
-

١ - قول الله تعالى :{يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود} (المائدة ١)

٢ - وقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المسلمون على شروطهم".(فقه السنة مجلد ٢ جزء ٦ ص ١٨١)

٣ - وروى البخارى ومسلم وغيرهما عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج".

٤ - روى الأشرم بإسناده : أن رجلا تزوج امرأة وشرط لها دارها، ثم أراد نقلها، فخاصموه إلى عمر بن الخطاب، فقال : لها شرطها "مقاطع الحقوق عند الشروط".

٥ - ولأنه شرط لها فيه منفعة ومقصود، لا يمنع المقصود من الزواج، فكان لازما، كما لو شرطت عليه زيادة المهر.

● ومن الشروط التى نهى الشرع عنها فى العقد، ويحرم الوفاء بها : اشتراط المرأة عند الزواج طلاق ضرتها : فعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه، أو يبيع على بيعه، ولا تسأل المرأة طلاق أختها، لتكفئ ما فى صحفتها أو إنائها، فإنما رزقها على الله تعالى". (متفق عليه).

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يحل أن تنكح امرأة بطلاق أخرى". (رواه أحمد)

فلها حرية القبول أو الرفض، فى ضوء ظروف الرجل الواقعية، أما أن تبنى سعادتها على تعاسة غيرها، فهذا يرفضه الشرع الحكيم.

●ونهى الشرع عن أى نية من نوايا الغش، وقت عقد القران :

كأن يغرر الرجل بالمرأة مثل أن يتزوجها وهو عقيم، وهى لا تعلم بعقمه، فلها فى هذه الحال حق نقض العقد وفسخه متى علمت، إلا إذا اختارته زوجا لها، ورضيت معاشرته، لأن الأسرة الإسلامية لا تبنى على الغش، بل لابد من بنائها على دعائم ثابتة.

كما يحرم العقد على المرأة، وفى نية الزوج طلاقها بعد فترة، دون إعلامها بذلك، لأن هذا عبث بتلك الرابطة العظيمة، ويتيح التنقل فى مراتع الشهوات، بحجة الزواج، وما يترتب على ذلك من المنكرات من عداوة وبغضاء، وذهاب الثقة بين الناس.

- كما يحرم على الرجل خداع المرأة، بأن يتفق معها على مهر، وفى نيته عدم دفعه. كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر، ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقها خدعها. فمات ولم يؤد إليها حقها، لقى الله يوم القيامة وهو زان".

[رواه الحافظ عن ميمون عن أبيه. من الترغيب والترهيب للإمام المنذرى جزء (٣) باب ترغيب الزوج فى الوفاء بحق زوجته ص٤٨]

جـ- تحريم زواج المتعة :

ويسمى الزواج المؤقت والزواج المنقطع، وهو أن يعقد الرجل على المرأة يوما أو أسبوعا أو شهرا. وسمى بالمتعة لأن الرجل ينتفع ويتبلغ بالزواج. ويتمتع إلى الأجل الذى وقته. وهو زواج متفق على تحريمه بين أئمة المذاهب، لأنه يقصد به قضاء الشهوة، ولا يقصد به التناسل، ولا المحافظة على الأولاد، وهى المقاصد الأصلية للزواج. فهو يشبه الزنى من حيث قصد الاستمتاع دون غيره. ثم هو يضر بالمرأة إذ تصبح كالسلعة التى تنتقل من يد إلى يد، كما يضر بالأولاد، حيث لا يجدون البيت الذى يستقرون فيه، ويتعهدهم بالتربية والتأديب.

عن سبرة الجهنى أنه غزا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى متعة النساء، قال : فلم يخرج منها حتى حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وفى لفظ رواه ابن ماجه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم المتعة فقال : يا أيها الناس إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع، ألا وإن الله قد حرمها إلى يوم القيامة.

وعن على رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن لحوم الحمر الأهلية(٥٠).

د- تحريم زواج التحليل :

وهو أن يتزوج الرجل المطلقة ثلاثا بعد انقضاء عدتها، أو يدخل بها ثم يطلقها، ليحلها للزوج الأول.

وهذا زواج حرمه الله ورسوله، لأنه لا يقوم على دعائم الشرع المتينة لبناء الأسرة، كما أنه يشجع النفوس على الاستهانة بقدسية الزواج وروابطه، فيستمرئ الرجال الطلاق، ويتشدقون به لأتفه الأسباب، حتى إذا ما وجد الرجل منهم شريكة حياته على وشك الضياع منه، لجأ إلى هذه الحيلة الخبيثة، ليحل زوجته له ثانيا.

ولا شك أن تحريم الإسلام لهذا النوع من الزواج، فيه حفاظ على كرامة المرأة. فلا يستهين الزوج بها، ويعمل لها ألف حساب، قبل النطق بكلمة الطلاق،، التي تزلزل كيانها وتهدم كبرياءها، وتعرض أمن الأسرة واستقرارها للتشتت والضياع النفسي. في الوقت الذي تحتاج فيه الأمة إلى أسرة مستقرة نفسيا، تتوجه طاقاتها إلى البناء والتعمير، لا إلى التشتت والتبديد، خلال الصراعات الأسرية.

عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا : بلى يا رسول الله. قال : هو المحلل. لعن الله المحلل والمحلل له". (رواه ابن ماجه والحاكم)

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن المحلل فقال : "لا. إلا نكاح رغبة، لا دلسة، ولا استهزاء بكتاب الله عز وجل حتى تذوق عسيلته". (رواه أبو إسحاق الجوزجاني). وهذه الأحاديث منقولة كما بينا، من كتاب فقه السنة المذكور في المراجع.

وتحريم الرسول له راجع إلى قول الله عز وجل : { فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله}

وعن عمر رضي الله عنه قال : لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما". فسئل ابنه عن ذلك فقال كلاهما زان. (رواه ابن المنذر، وابن أبي شيبة وعبد الرزاق).

وسأل رجل ابن عمر فقال : ما تقول فى امرأة تزوجتها لأحلها لزوجها، ولم يأمرنى ولم يعلم ؟ فقال له ابن عمر : لا إلا نكاح رغبة إن أعجبتك أمسكتها، وإن كرهتها فارقتها، وإنا كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لا يزالان زانيين وإن مكثا عشرين سنة، إذا علم أنه يريد أن يحلها. (فقه السنة المرجع السابق ص ١٧٥)

هـ- تحريم نكاح الشغار :

وهو أن يزوج الرجل وليته رجلا، على أن يزوجه الآخر وليته، وليس بينهما صداق. وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الزواج فقال :

- "لا شغار فى الإسلام". رواه مسلم عن ابن عمر، ورواه ابن ماجه من حديث أنس بن مالك.

والشغار أصله الخلو. والمراد به هنا الخلو عن المهر.

- وعن ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشغار. والشغار : أن يقول الرجل للرجل : زوجنى ابنتك أو أختك، على أن أزوجك ابنتى أو أختى، وليس بينهما صداق. (رواه ابن ماجه).

والسبب فى منع هذا النوع من النكاح : أنه ظلم لكل واحدة من المرأتين حيث لم تنل أى منهما مهرا، بل عاد المهر إلى الولى، فخلا النكاح عن مهر تنتفع به المرأة نفسها.

وهكذا حافظ الإسلام على كرامة المرأة ومصلحتها إلى أبعد الحدود، حتى المهر : يبطل الشرع نكاح الشغار، لأن المرأة تساق فيه كسلعة تبادلية، فى نظام يشبه نظام المقايضة قديما.

فهل يوجد أى نظام أو تشريع فى العالم، يحقق للمرأة مثل هذه المكانة الرفيعة، منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها ؟!

حقا إن الشريعة بحر خضم عميق الأغوار، مليء بالكنوز التى يعجز البشر عن استخراجها دفعة واحدة .. فرغم كل ما تكلمنا عنه فهناك الكثير والكثير من حقوق المرأة، التى سنتها لها الشريعة. مثل : حسن المعاشرة، والعدل بين الزوجات، واللين فى المعاملة. وجعل الجنة تحت أقدام الأمهات، وتفضيل الأم على الأب بحسن الصحبة، كما أوصى بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات.

أما ما يوجهونه إلى الإسلام من انتقادات، بشأن ما يسمونه انتقاص حقوق المرأة فى الميراث والشهادة والقوامة و ... فندعو الله أن يوفقنا فى أجزاء قادمة إن شاء الله للرد على تلك المزاعم، لنعرف أن الشريعة أرادت بهذا مزيدا من رفعة شأن المرأة، ومزيدا من صيانتها والحفاظ عليها، وسط تيارات الحياة المادية العنيفة.

ولكى تتبلور الشريعة فى إطارها الحقيقى، وتظهر للشعوب بمظهرها البراق الذى يليق بها، يجب على المسلمين جميعا، والنساء بصفة خاصة، أن يغترفوا تعاليم دينهم من نبع صاف رقراق، ويعملوا بتلك التعاليم بصدق ويقين. وهنا فقط ستخرس كل الألسنة التى تطعن فى ديننا، لأنها تحسدنا على ما حبانا الله به من نعمة الإسلام، وتريد زحزحتنا عن هذا البنيان الراسخ المتين، وصدق الله العظيم إذ يقول :

{ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون} (الحجر ٢، ٣)

وهم يبذلون فى زلزلة عقيدتنا كل جهد، وكل غال ونفيس، وكل شعارات مضللة، مثل الحرية والمساواة بين الجنسين، وحقوق المرأة، والعولمة، والحياة

العصرية و ... ونحن نلهث وراءهم فى سبيل نيل الرضا، ولكن هذا الرضا ثمنه غال جدا، أغلى ما نملك، إنه عقيدتنا الراسخة المتينة، التى فيها عزنا ومجدنا وكرامتنا وهذا ما حذرنا منه المولى عز وجل. {ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير} (البقرة ١٢٠)

فاللهم اهدنا سواء السبيل، وأنر بصيرتنا، حتى نعرف الحق حقا فنتبعه. ونرى الباطل باطلا فنتجنبه. ولتعرف النساء المسلمات أن كل ما تتمتع به نساء العالم حاليا، من حرية التعبير عن الرأى، ومكانة اجتماعية، وارتفاع أصواتهن فى المحافل الدولية، هو بفضل جهاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. فلتتق كل مسلمة ربها، لأنه سيحاسبها على دورها فى الحياة، ومسئوليتها التى أوكلها الله إليها، بعد كل تلك القوانين التشريعية، التى حبتها بها شريعة الله، لتؤدى دورا ساميا يليق مع مكانتها الرفيعة، التى بوأها الإسلام إياها، بعدما حررها من كل صور الذل والعبودية، التى كانت تعانى منها قبل ظهور الإسلام، على يد نبى الرحمة.

فاللهم جازه عنا خير ما جازيت به نبيا عن قومه، ورسولا عن أمته. وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وكل من اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين.

وننتقل الآن إلى بيان نظرة الإمام النورسى عن المرأة، تدعيما للحقيقة التى نسعى إلى إيضاحها، وهى بيان مكانة المرأة السامية، وحنو الشريعة عليها إلى أقصى مدى ..

الفصل الرابع

نظرة الإمام النورسى نحو المرأة(*)

تمهيد :

إذا كان لكل إمام مفتاح، يفتح به قلوب محبيه، فإن المفتاح الذى فتح به الإمام النورسى قلبى هو نظرته إلى المرأة، حيث لم أجد طوال حياتى من حقق الاطمئنان لنفسى، والفخر بأنى امرأة، مثلما فعل الإمام النورسى فى حديثه عن المرأة، والاهتمام بها غاية الاهتمام.

فكل الحركات التى تسمى نفسها إصلاحية أو تحررية أو .... وترفع شعارات المساواة بين المرأة والرجل، أرى أنها لا تعطى المرأة أية حقوق، بل على العكس، فهى تلقى على عاتق المرأة مزيدا من الأعباء، بدفعها دفعا إلى حلبة الصراع فى الحياة، على المراكز والنفوذ، ومكاسب الحياة الدنيا، وبريقها الزائف.

أما الإمام النورسى، فقد أخذ بيد المرأة ليرتقى بها فى عنان السماء، ويبعدها عن تطاحن الغوغاء، وينبهها بأنها مخلوق كله رقة وحنان، خلقته العناية

(*) الإمام النورسى هو المفكر العظيم صاحب حركة إحياء الفكر الدينى فى تركيا، حيث وهب حياته للحفاظ على الهوية الإسلامية فى تلك البلاد، التى تعرضت لأقصى ما تعرضت له دولة إسلامية من غزوات الفكر الغربى .. ولد عام ١٨٧٦ بشرق الأناضول بتركيا، وانتقل إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٦٠، بعد حياة حافلة بالجهاد المادى والمعنوى فى أسمى صورة وأبلغ معانيه.

وهو المجاهد الذى حمل السيف والقلم دفاعا عن الحق، وهو صاحب رسائل النور، التى تعتبر بحق زاد الدعوى الإسلامية لأجيال المستقبل، التى تحتاج إلى البرهان العقلى، والحكمة المستقاة من حقائق القرآن، وتتفق مع روح العصر.

الإلهية لإشاعة الرحمة والشفقة فى النفوس البشرية. وأنها يوم أن تتخلى عن تلك الرسالة القدسية، فإنها تشارك فى تحطيم الإنسانية وتقويض أركانها، أكثر من قيام الحروب الذرية.

فكيف حقق الإمام النورسى أهدافه فى تلك الدعوة السامية ؟ وما هى الأسس التى ارتكز عليها وسلك سبيلها ؟ هذا هو ما سنوضحه فيما يلى ..

الجزء الأول : النورسى وتحرير المرأة

بماذا تميز منهج الإمام النورسى فى تحرير المرأة ؟

إذا كانت هناك دعوات كثيرة، تطلق على نفسها أنها تهدف إلى تحرير المرأة، ففى اعتقادى أنها تؤدى فى النهاية إلى عبودية المرأة، لأهوائها وشهواتها وقيود وظيفتها ورؤسائها. أما الإمام النورسى، فهو يهدف بحق إلى تحرير المرأة من شرور أنفسها وسيئات أعمالها، وتحريرها من ضغوط الصراع فى شعب كثيرة انطلاقاً من قول الحق عز وجل :

"ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً". (الزمر : ٢٩)

فإن تناسى المرأة لوظائفها الجوهرية فى الحياة، يجعلها تسلم نفسها لشركاء كثيرين، كل منهم يتنازعها لتحقيق أهدافه. أما إذا سلمت المرأة قيادها لخالقها، فإن ذلك التسليم يحميها من عواصف مدمرة، لا تؤدى بها إلى مهالك دنيوية فقط، بل قد تحرمها نهائياً من السعادة الأبدية.

ومن هنا، فقد حرص الإمام النورسى بكل ما يملك من جهد، على انتشال المرأة من التردى فى أغوار سحيقة، نتيجة البعد عن التمسك بالفضيلة، والاعتصام بحبل الله المتين، ومنهاجه القويم. وهذا ما تميزت به دعوته دوماً.

فهو لا يضع قيوداً على حركة المرأة فى الحياة، طالما أن تلك الحركة مبعثها ومنتهاها مرضاة الله، ومحاطة بسياج منيع من الأحكام الشرعية، يصونها من التردى فى مزالق دنيوية، أو حرمانها من الفوز بالنعيم فى الحياة الأخروية. ولذلك فإن منهاج الإمام النورسى فى تحرير المرأة : يتميز بالأصالة الدينية التى تتفق مع التطورات العصرية. حيث يؤكد على أهمية دور المرأة فى الحياة، وضرورة مشاركتها الإيجابية، ليكون لها دور بناء يتفق مع مكانتها. وفى نفس الوقت فإن تلك المشاركة الإيجابية

يجب ألا تجعلها تغفل عن حقيقتها كامرأة خلقت من معدن الشفقة، الذى جبل على العطاء بدون مقابل، لأنها يدفعها الإخلاص الذى يبتغى وجه الله الأعلى.

ويوم أن تنسى المرأة تلك المعانى النورانية، فإنها تدفع بنفسها فى خضم المادية، فتشقى، وتشقى معها البشرية كلها.

ما هى الأسس التى ارتكز عليها لتحقيق دعوته ؟

سلك الإمام النورسى فى سبيل دعوته لتحرير المرأة طريقا معنويا، ليكون أكثر فاعلية، لأنه يوقظ فيها كوامن العقيدة المستقرة فى أعماقها، بحيث تصير شعلة من النور تضئ لنفسها ولمن حولها.

وارتكز فى سبيل ذلك على عدة أسس وهى :-

١- تفجير الطاقات الكامنة فى المرأة :

فهو يعتبر أن النساء هن رائدات الشفقة وبطلات الحنان، ولذلك حاول قدر جهده أن يجلى ذلك المعدن الشفوق ليزداد بريقا وتألقا ويظهر أروع ما فيه، فكان يقول :

إن فداء الأم بروحها إنقاذا لولدها من الهلاك، من دون انتظار لأجر، وتضحيتها بنفسها، بإخلاص حقيقى لأولادها، باعتبار وظيفتها الفطرية، تدلان على وجود بطولة سامية رفيعة فى النساء، بحيث يستطعن أن ينقذن حياتهن الدنيوية والأخروية، بانكشاف هذه البطولة وإنجلائها فى أنفسهن. إلا أن تيارات فاسدة تحول دون ظهور تلك السجية القيمة القويمة، وتمنع انكشافها، أو تصرف تلك التيارات هذه السجية الطيبة إلى غير محالها، فتسئ استعمالها.

ولذلك فإن الإمام النورسى بذل غاية جهده لتفجير طاقات الشفقة والحنان لدى المرأة، وتوجيهها الوجهة السليمة، بتربية أولادها التربية الإسلامية، التى تحميهم من السجن الأبدى الذى هو جهنم، ومن الإعدام الأبدى الذى هو الموت فى الضلالة، وفى نفس الوقت فإن ولدها المؤمن سيوصل الأنوار دوما

إلى روحها بعد وفاتها، إذ يسجل فى صحيفة أعمالها، مثل جميع الحسنات التى يعملها الولد الصالح. كما سيكون لها ولدا طيبا مباركا فى الآخرة، ينعمان معا بحياة خالدة، شفيعا لها عند الله ما وسعه، بدلا من أن يكون شاكيا منها ومدعيا عليها إذا أساءت استعمال شفقتها الموهوبة، فلم تحرص على إنقاذه من سجن جهنم الأبدى، حيث سيشكوها ذلك الولد هناك قائلا لها : "لم لم تقوى إيمانى حتى تسببت فى هلاكى هذا ؟!".

٢- بعث روح الاعتزاز بدورها الفعال فى الحياة :

هناك كثير من النساء تناسين دورهن الأساسى فى الحياة، وهو الأمومة بمعانيها السامية، وأصبح شغلهن الشاغل هو السعى وراء المراكز المرموقة، والشهرة فى الحياة الدنيا. ولهذا فقد اهتم النورسى اهتماما بالغا ببعث ذلك الدور الفعال. وترشيده فى نفس الوقت فقال :

إن أول أستاذ للإنسان، وأكثر من يؤثر فيه تعليما إنما هو والدته، وسأبين هذا المعنى الذى أحسه دائما إحساسا قاطعا فى شخصى وهو : أقسم بالله أن أرسخ درس أخذته، وكأنه يتجدد على، إنما هو تلقينات والدتى رحمها الله، ودروسها المعنوية، حتى استقرت فى أعماق فطرتى، وأصبحت كالبذور فى جسدى، فى غضون عمرى الذى يناهز الثمانين، وأرى يقينا أن سائر الدروس التى تلقيتها خلال هذا العمر، إنما تبنى على تلك البذور. فالشفقة والرأفة والرحمة، التى هى حقائق عظمى من رسائل النور، أشاهدهم يقينا بأنهم نابعين من أفعال تلك الوالدة الرؤوف، ومن أحوالها الشفيقة ومن دروسها المعنوية.

ولكننى أرى أن الشفقة والحنان الكامنين فى الأمومة، قد أسئ استعمالها فى الوقت الحاضر، إذ لا تفكر الأم بما سينال ولدها فى الآخرة من كنوز، هى أثمن من الألماس، بل تصرف وجهه إلى هذه الدنيا، التى لا تعدل قطعا زجاجية فانية، ثم تشفق عليه فى هذا الجانب من الحياة، وما هذا إلا إساءة فى استعمال

تلك الشفقة، لأنها لم تضم بين جوانحها الإخلاص الحقيقى الذى يتضمن أعمال الآخرة.

٣- بيان أنها لا تقل أهمية عن الرجل وفاعلية :

يرى الإمام النورسى أن النساء يتميزن بالبطولة، فى تضحيتهن العظيمة دون انتظار لأجر ولا عوض، ومن دون رياء وإظهار لأنفسهن، وهن على استعداد للفداء بأرواحهن من أجل أولادهن. ومما يثبت ذلك هو ما نراه فى الدجاجة، التى تحمل مثالا مصغرا من شفقة الأمومة وحنانها، فهى تهاجم الأسد، وتفدى بروحها حفاظا على فراخها الصغار. أما تضحية الآباء فلا تكون دون عوض قطعا، إنما تطلب الأجر والمقابل من جهات كثيرة، أقلها الفخر والسمعة. فإذا تحصنت النساء بآداب الإسلام، فإنها ستصبح طائفة مباركة، تكون مدار سعادة عظمى فى المجتمعات الإسلامية.

كذلك وجد الإمام النورسى : أن النساء فى قرية ساو وما حولها، يعملن عملا جادا، وبشوق وفعالية أكثر من الرجال فى نشر رسائل النور. ويرجع ذلك إلى أن أهم أساس فى مسلك رسائل النور هو الشفقة. وحيث أن السيدات هن معدن الشفقة ومنبعها، فإن رسائل النور استطاعت أن تفتح وتنور قلوب أولئك السيدات معادن الشفقة. وهذا معناه أن قلوب النساء إذا ارتوت بماء الإيمان، أينعت وصارت ذات فعالية كبرى فى الحياة، قد تزيد أحيانا عن الرجال.

٤- التأكيد على أن الحياة الأسرية هى قلعة المرأة الحصينة :

علم الإمام النورسى أن هناك منظمات سرية تعمل فى الخفاء، وتسعى سعيا جادا مؤثرا، لدفع الغافلات من النساء اللطيفات، إلى طرق خاطئة آثمة. فأدرك أن هذه ضربة قاصمة على الأمة الإسلامية تأتى من تلك الجهة، فانبرى ينبه النساء إلى ما يكاد لهن، لإبعادهن عن قواعد الدين التى هى

الحصن الحصين. فقال : إن العلاج الناجح لإنقاذ سعادة النساء من الإفساد، فى دنياهن وأخراهن معا، والوسيلة الوحيدة لصون سجاياهن الراقية، اللاتى فى فطرهن من الفساد، ليس إلا فى تربيتهن تربية دينية، ضمن نطاق الإسلام الشامل، لأن الحياة الأسرية هى جنة المرأة المصغرة، ودنياها الصغيرة، إذا دخلت المرأة رحاب الإسلام، حيث تفرض عليها تلك الرحاب ما يلى :

- إذا ما شاهدت الزوجة فسادا فى زوجها، وخيانة منه وعدم وفاء، فقامت هى كذلك – عنادا له – بترك وظيفتها الأسرية، وهى الوفاء والثقة. فإنه بذلك يختل نظام تلك الأسرة كليا، وتذهب هباء منثورا، كالإخلال بالنظام فى الجيش. فعلى الزوجة أن تسعى جادة لإكمال نقص زوجها، وإصلاح تقصيره، كى تنقذ صاحبها الأبدى. وإلا فهى تخسر وتتضرر فى كل جانب، إذا ما حاولت إظهار نفسها، وتحبيبها للآخرين، بالتكشف والتبرج، لأن الذى يتخلى عن الوفاء، يجد جزاءه فى الدنيا أيضا. فعليها أن تتذرع بالصبر، فعسى الله أن يصلح زوجها، برضاها وقناعتها وتسليم أمرها لله.

- كم هى سعيدة تلك الزوجة التى ترى زوجها متدينا، فتتمسك بأهداب الدين، لئلا تفقد رفيقها الأبدى، فتفوز بسعادة آخرتها ضمن سعادة دنياها، وكم هو شقى ذلك الزوج الذى يتبع زوجته التى ارتمت فى أحضان السفاهة فيشاركها ولا يسعى لإنقاذها. فالإسلام يفرض على الزوجين التناصح على طريق الهدى.

- إن الزوج الرشيد لا يبنى محبته لزوجته على جمال ظاهرى زائل، لا يدوم عشر سنوات، بل الإسلام يفرض عليه أن يبنى مودته لها على شفقتها، التى هى أجمل محاسن النساء وأدومها، كى تدوم محبته لها، كلما شابت تلك الزوجة الضعيفة، فهى ليست رفيقته فى حياة دنيوية مؤقتة، وإنما هى رفيقته المحبوبة فى حياة أبدية خالدة. فيلزم على الزوجين أن يتحابا باحترام أزيد، ورحمة أوسع، كلما تقدما فى العمر.

أما حياة الأسرة التى تتربى فى أحضان المدنية الحديثة، فهى معرضة للانهيار والفساد، حيث تبنى العلاقة فيها على صحبة مؤقتة، يعقبها فراق أبدى، ويعين الزوجان كل منهما الآخر فى دفعه إلى النار، أى يغرى كل منهما الآخر للانغماس فى زخارف المدنية.

٥- ضرورة اختيار الزوج الكفء :

يرى الإمام النورسى أن الدعامة الأساسية لتحرير المرأة، والانطلاق بها فى آفاق واسعة، من الفعالية والطمأنينة، والسعادة الدنيوية والأخروية هى : ضرورة اختيار الزوج الكفء - بالاصطلاح الشرعى - حتى يراعى حقوقها الشرعية، ويكون لها رفيق حياة أبدية ... فيقول : إن زماننا هذا لا يشبه الأزمنة الغابرة، فلقد تمكنت التربية الحديثة "الأوروبية" فى المجتمع، عوضا عن التربية الإسلامية، طوال نصف قرن من الزمان. إذ بينما كان الرجل المسلم يتزوج ليحصن نفسه من الآثام، ويجعل زوجته صاحبته الأبدية، ومدار سعادته الدنيوية، بدافع من تربية الإسلام، نرى الرجل حاليا يجعل تلك الضعيفة المنكوبة - بتأثير التربية الأوروبية - تحت سطوته وتحكمه الدائم، ويحصر حبه لها فى عهد شبابها وحده، وربما يزجها فى عنت ومشقات، تفوق كثيرا ما هيأ لها من راحة جزئية، مما يجعل حياتها تمضى فى عذاب وآلام.

ولذلك ينصح الإمام النورسى المرأة المسلمة بما يلى :

- ألا تندفع إلى الزواج تحت دواعى أحاسيسها، ودوافعها النفسية، وميلها الفطرى، لأن المرأة تتحمل مقابل اللذة التى تدوم عشر دقائق، آلام حمل حوالى عشرة أشهر، فضلا عما تتحمل من مشقات طوال عشر سنوات من أجل طفلها. فإن لم يكن تلك التضحيات مقابل غاية سامية، فلا داعى لها.
- ألا تتزوج المرأة تحت ضغط الحاجة إلى من يعينها فى أمور العيش، لضعف خلقتها. فمن الأولى أن تسعى لكسب نفقتها بنفسها، أفضل من أن تدفعها

تلك الحاجة إلى الرضوخ لسيطرة زوج، نشأ على تربية غير إسلامية، واعتاد على الإكراه والفساد. وربما تحاول الزوجة كسب رضاه بالتصنع وبالإخلال بعبادتها وأخلاقها، التى هى مدار حياتها الدنيوية والأخروية.

- ألا تتزوج تحت ميلها الفطرى إلى حب الأولاد وملاطفتهم، فالتربية الأوروبية التى حلت محل التربية الإسلامية فى الوقت الحاضر، تجعل واحدا أو اثنين من كل عشرة أبناء، ابنا بارا بوالدته، يسجل حسنات فى صحيفة أعمالها، بأدعيته الطيبة وأعمال البر، ويشفع لها - إن كان صالحا - يوم القيامة. لذا فإن هذا الميل الفطرى والشوق النفسانى، فى حب الأولاد ومداعبتهم، لا ينبغى أن يدفع المرأة إلى تحمل مصاعب الحياة الشاقة، بدون مقابل أخروى.

يخلص من ذلك الإمام النورسى : أنه على النساء المؤمنات ألا يبعن أنفسهن رخيصات، عندما لا يجدن الزوج المؤمن الصالح، ذا الأخلاق الحسنة الملائم لهن تماما. بل عليهن البقاء فى حياة العزوبة، إن لم يجدن ذلك الزوج الكفء، لئلا تفسدن سعادتهن الأخروية، لأجل لذة دنيوية طارئة، فيغرقن فى سيئات المدنية الحديثة.

٦- الدعوة إلى رعاية حقوق المرأة :

إن اهتمام الإمام النورسى بالمرأة، لتحقيق الحرية الحقيقية لها، لم يقتصر على توجيه النصح لها. بل وجه أيضا النصح المتواصل إلى الرجل، لرعاية حقوق الزوجة وحقوق الأم والابنة وحقوق الأخت. وهو فى دعوته هذه، لا يقصد مثل الدعوات التحررية التى تطالب بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل فى الوظائف. إنما مقصده هو رعاية حقوق المرأة الإنسانية، من العطف عليها والشفقة بها، وإسباغ الحب والحنان والرحمة عليها، وهى أسمى ما تتشوق إليه نفس المرأة، كما تتشوق الزهرة الظمأى إلى قطرات الندى. ولذلك يقول الإمام النورسى :

لا سعادة لروح الحياة العائلية إلا بالاحترام المتبادل الجاد، والوفاء الخالص بين الجميع، والرأفة الصادقة، والرحمة التى تصل إلى حد التضحية والإيثار. ولا يحصل هذا الاحترام الخالص، والرحمة المتبادلة الوفية، إلا بالإيمان بوجود علاقات صداقة أبدية فى الآخرة، ورفقة دائمة، ومعية سرمدية، وزمن لا نهاية له، وتحت ظل حياة لا حدود لها، تربطها علاقات أبوة محترمة مرموقة، وأخوة خالصة نقية، وصداقة وفية نزيهة، حيث يحدث الزوج نفسه : "إن زوجتى هذه رفيقة حياتى وصاحبتى فى عالم الأبد والحياة الخالدة، فلا ضير إن أصبحت الآن دميمة أو عجوزا، إذ أن لها جمالا أبديا سيأتى. لذا فأنا مستعد لتقديم أقصى ما يستوجبه الوفاء والرأفة، وأضحى بكل ما تتطلبه تلك الصداقة الدائمة". وهكذا يمكن أن يكن هذا الرجل حبا ورحمة لزوجته العجوز، كما يكنه للحور العين. وإلا فإن صحبة وصداقة صورية، ومن ثم يعقبها فراق أبدى، ومفارقة دائمة، لهى صحبة وصداقة ظاهرية، لا أساس لها ولا سند، ولا يمكنها أن تعطى إلا رحمة مجازية واحتراما مصطنعا، وعطفا حيوانى المشاعر، فضلا عن تدخل المصالح والشهوات النفسانية، وسيطرتها على تلك الرحمة والاحترام، فتنقلب عندئذ تلك الجنة الدنيوية إلى جحيم لا يطاق. ويوجه الإمام النورسى النصح إلى الزوج قائلا : عليك بمحبة زوجتك على أنها هدية أنيسة لطيفة، من هدايا الرحمة الإلهية. وإياك أن تربط محبتك لها برباط الجمال الظاهرى السريع الزوال، بل أوثقها بالجمال الذى لا يزول، ويزداد تألقا يوما بعد يوم، وهو جمال الأخلاق والسيرة المنغرزة فى أنوثتها ورقتها. وإن أحلى ما فيها من جمال وأسماه هو فى شفقتها الخالصة النورانية. فجمال الشفقة هذا وحسن السيرة، يدومان ويزدادان إلى نهاية العمر. وبمحبتهما تصان حقوق هذه المخلوقة اللطيفة الضعيفة، وإلا تفقد حقوقها، فى وقت هى أحوج ما تكون إليها بزوال الجمال الظاهرى.

أما النتيجة الأخروية لمحبة الزوجة، المؤسسة على حسن سيرتها، وجميل خصلتها، ولطيف شفقتها، والتى تصونها عن النشوز، وتجنبها الخطايا

والذنوب، فهي : جعل تلك الزوجة الصالحة محبوبة ومحبة، وصديقة صدوقة، وأنيسة مؤنسة في الجنة. جمالها أبهى من الحور العين، زينتها أزهى من زينتهن، حسنها يفوق حسنهن، تتجاذب مع زوجها أطراف الحديث، يستذكران أحداث أيام خلت. هكذا وعد الرحيم الكريم. فما دام قد وعد فسيفي بوعده حتما.

وبدعوة النورسي هذه إلى رعاية حقوق المرأة المعنوية، فإنه يحميها بسياج منيع من الأمان النفسي الذي يحافظ على أنوثتها، ويفتح أمامها آفاق ممتدة سلمية، بدل الصراع واللهث على الوظائف والحياة الفانية. كما أنه من خلال تلك الدعوة يحفز الرجل ويشوقه لامرأته، لأنها ستكون الجائزة الكبرى له في الآخرة. وتلك كلها معانى رائعة كادت تتيه في خضم المادية، والصراعات الدنيوية، ونحتاج بشدة إلى من يوقظها في حياتنا، مثلما فعل الإمام النورسي.

وننتقل الآن إلى الجزء الثاني وهو كيف يتناول النورسي بعض القضايا التي تخص المرأة، وتثير جدلا، ينفذ منه البعض إلى محاولة زعزعة أصول العقيدة عند المرأة، بتوجيه النقد للشريعة. لذلك فقد اجتهد النورس في بيان الأهداف المعنوية للأحكام الشرعية، للحفاظ على المرأة، لتقوم بدورها بإيجابية وفاعلية، وفي نفس الوقت تحافظ على سعادتها الدنيوية والأخروية.

الجزء الثانى : قضايا تتعلق بالمرأة

أولا : قضية الحجاب

قال تعالى فى كتابه الكريم : "يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن". (الأحزاب : ٥٩).

هذه الآية الكريمة تأمر بالحجاب .. بينما تذهب المدنية الزائفة إلى خلاف هذا الحكم الربانى، فلا ترى الحجاب أمرا فطريا للنساء، بل تعده أسرا وقيدا لهن.

وسنبين هنا أربعا من الحكم فقط - من بين حكم غزيرة - تدل على أن هذا الحكم القرآنى تقتضيه فطرة النساء، وخلافه غير فطرى :

الحكمة الأولى :

إن الحجاب أمر فطرى للنساء، تقتضيه فطرقمن، لأن النساء جبلن على الرقة والضعف. فيجدن فى أنفسهن حاجة إلى رجل يقوم بحمايتهن وحماية أولادهن، الذين يؤثروهم على أنفسهن. وهن يحملن فى فطرقمن تخوفا من الرجال الأجانب، وهذا التخوف يقتضى فطرة التحجب وعدم التكشف.

ثم، إن ما يقرب من سبعة أعشار النساء، إما متقدمات فى العمر، أو دميمات لا يرغبن فى إظهار شيبتهن أو دمامتهن، أو أهن يحملن غيرة شديدة فى ذواقمن، يخشين أن تفضل عليهن ذوات الحسن والجمال، أو أهن يتوجسن خيفة من التجاوز عليهن وتعرضهن للتهم. فهؤلاء النساء يرغبن فطرة فى الحجاب، حذرا من التعرض والتجاوز عليهن، وتجنبا من أن يكن موضع تهمة فى نظر أزواجهن. بل إن المسنات أحرص على الحجاب من غيرهن.

وربما لا يتجاوز الاثنتين أو الثلاث من كل عشر من النساء هن : شابات وحسناوات، لا يتضايقن من إبداء مفاتنهن ! إذ من المعلوم أن الإنسان يتضايق من نظرات من لا يحبه. وحتى لو فرضنا أن حسناء جميلة، ترغب فى أن يراها الناس أو

ثلاثة من غير المحارم، فهى حتما تستثقل وتنزعج من نظرات سبعة أو ثمانية منهم، بل تنفر منها.

فالمرأة لكونها رقيقة الطبع سريعة التأثير تنفر حتما ما لم تفسد أخلاقها وتتبذل – من نظرات خبيثة تصوب إليها، والتى لها تأثير مادى كالسم – كما هو مجرب – حتى أننا نسمع : أن كثيرا من نساء أوروبا، وهى موطن التكشف والتبرج، يشكين إلى الشرطة من ملاحقة النظرات إليهن قائلات : إن هؤلاء السفلة يزجوننا فى سجن نظراتهم !

وهكذا فإن رفع المدنية السفيهة الحجاب، وإفساحها المجال للتبرج يناقض الفطرة الإنسانية. وأن أمر القرآن الكريم بالحجاب – فضلا عن كونه فطريا – يصون النساء من المهانة والسقوط، ومن الذلة والأسر المعنوى ومن الرذيلة والسفالة، وهن معدن الرأفة والشفقة والرفيقات العزيزات لأزواجهن فى الأبد.

الحكمة الثانية :

إن العلاقة الوثيقة والحب العميق بين الرجل والمرأة، ليسا ناشئين عما تتطلبه الحياة الدنيا من الحاجات فحسب، فالمرأة ليست صاحبة زوجها فى حياة دنيوية وحدها، بل هى رفيقة أيضا فى حياة أبدية خالدة .. لذلك فلا ينبغى لها ألا تلفت نظر غير رفيقها الأبدى، وصديقها الخالد إلى مفاتنها، وألا تزعجه، ولا تحمله على الغضب والغيرة.

وحيث أن زوجها المؤمن، بحكم إيمانه لا يحصر محبته لها فى حياة دنيوية فقط، ولا يوليها محبة حيوانية قاصرة على وقت جمالها وزمن حسنها، وإنما يكن لها حبا واحتراما خالصين دائمين، لا يقتصران على وقت شبابها وجمالها، بل يدومان إلى وقت شيخوختها وزوال حسنها، لأنها رفيقته فى حياة أبدية خالدة، فإزاء هذا لابد للمرأة أيضا، أن تخص زوجها وحده بجمالها ومفاتنها وتقصر محبتها عليه، كما هو مقتضى الإنسانية، وإلا ستفقد الكثير، ولا تكسب إلا القليل.

ثم إن ما هو مطلوب شرعا : أن يكون الزوج كفئا للمرأة، وهـذا يعنى ملاءمة الواحد للآخر ومماثلتهما، وأهم ما فى الكفاءة هذه : هى كفاءة الدين كما هو معلوم. فما أسعد ذلك الزوج الذى يلاحظ تدين زوجته ويقوم بتقليدها، ويصبح ذا دين، لئلا يفقد صاحبته الوفية، فى حياة أبدية خالدة ! وكم هى محظوظة تلك المرأة التى تلاحظ تدين زوجها، وتخشى أن تفرط برفيق حياتها الأمين فى حياة خالدة، فتتمسك بالإيمان والتقوى.

الحكمة الثالثة :

إن سعادة العائلة فى الحياة واستمرارها، إنما هى بالثقة المتبادلة بين الزوجين، والاحترام اللائق والود الصادق بينهما، إلا أن التبرج والتكشف يخل بتلك الثقة، ويفسد ذلك الاحترام والمحبة المتبادلة. حيث تلاقى تسعة من عشرة متبرجات، أمامهن رجالا يفوقون أزواجهن جمالا، بينما لا ترى غير واحدة منهن، من هو أقل جمالا من زوجها، ولا تحبب نفسها إليه. والأمر كذلك فى الرجال فلا يرى إلا واحد من كل عشرين منهم، من هى أقل جمالا من زوجته، بينما الباقون يرون أمامهم من يفقن زوجاتهن حسنا وجمالا. فهذه الحالة قد تؤدى إلى انبعاث إحساس دنئ، وشعور سافل قبيح فى النفس، فضلا عما تسببه من زوال ذلك الحب الخالص، وفقدان ذلك الاحترام، وذلك :

إن الإنسان لا يمكنه أن يحمل فطرة، شعورا دنيئا حيوانيا تجاه المحارم - كالأخت - لأن سيماء المحارم تشعر بالرأفة والمحبة المشروعة، النابعين من صلة القربى. فهذا الشعور النبيل يحد من ميول النفس الشهوية، إلا أن كشف ما لا يجوز كشفه كالساق، قد يثير لدى النفوس الدنيئة حسا سافلا خبيثا، لزوال الشعور بالحرمة، حيث أن ملامح المحارم تشعر بصلة القرابة، وكونها محرما وتتميز عن غيرهم، لذا فكشف تلك المواضع من الجسد، يتساوى فيه المحرم وغيره، لعدم وجود تلك العلامات الفارقة، التى تستوجب الامتناع عن النظر المحرم، ولربما يهيج لدى بعض المحارم السافلين، هوى النظرة الحيوانية! فمثل هذه النظرة سقوط مريع للإنسانية، تقشعر من بشاعتها الجلود.

الحكمة الرابعة :

من المعلوم أن كثرة النسل مرغوبة فيها لدى الجميع، فليس هناك أمة ولا دولة، لا تدعو إلى كثرة النسل، وقد قال الرسول الكريم ﷺ : *"تناكحوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة"* . (رواه عبد الرازق والبيهقي). بيد أن رفع الحجاب وإفساح المجال أمام التبريج والتكشف، يحد من الزواج، بل يقلل من التكاثر كثيرا، لأن الشاب مهما بلغ فسوقه وتحلله، فإنه يرغب فى أن تكون صاحبته فى الحياة مصونة عفيفة، ولا يريدها أن تكون مبتذلة متكشفة مثله، لذا تجده يفضل العزوبة على الزواج، وربما ينساق إلى الفساد. أما المرأة فهى ليست كالرجل، حيث لا تتمكن من أن تحدد اختيار زوجها.

كما أن بلادنا لا تقاس ببلدان أوروبا، ففى تلك الأصقاع الباردة، ولدى أناس باردين، قد لا يؤدى التبرج الذى يثير الهوى الحيوانى، ويهيج الرغبات الشهوانية، إلى تجاوز الحدود، مثلما يؤدى إلى الإفراط والإسراف، فى أناس حساسين يثارون بسرعة، كما فى المناطق الحارة عندنا. وهذا يؤدى إلى ضعف النسل والهيار القوى.

ثم إن أهل المدن لا ينبغى لهم أن يقلدوا أهل القرى والأرياف فى حياتهم الاجتماعية، ويرفعوا الحجاب فيما بينهم. لأن أهل القرى يشغلهم شاغل العيش، وهم مضطرون إلى صرف جهود بدنية قوية لكسب معيشتهم، وكثيرا ما تشترك النساء فى أشغال متعبة، لذا لا يهيج ما قد ينكشف من أجزاء أجسامهن الخشنة، شهوات حيوانية لدى الآخرين، فضلا عن أنه لا يوجد فى القرى سفهاء عاطلون، بقدر ما هو موجود فى المدن. فلا تبلغ مفاسدها إلى عشر ما فى المدينة، لهذا لا تقاس المدن على القرى والأرياف.

ثانيا : قضية تعدد الزوجات :

إن المدنية الحاضرة لا تقبل تعدد الزوجات، وتحسب ذلك الحكم القرآنى مخالفا للحكمة، ومنافيا لمصلحة البشر.

نعم، لو كانت الحكمة من الزواج قاصرة على قضاء الشهوة، للزم أن يكون الأمر معكوسا، بينما هو ثابت حتى بشهادة جميع الحيوانات، وبتصديق النباتات المتزاوجة : أن الحكمة من الزواج، والغاية منه، إنما هي التكاثر وإنجاب النسل، أما اللذة الحاصلة من قضاء الشهوة، فهي أجرة جزئية تمنحها الرحمة الإلهية، لتأدية تلك المهمة. فما دام الزواج للتكاثر وإنجاب النسل، ولبقاء النوع حكمة وحقيقة. فلا شك أن المرأة التى لا يمكن أن تلد إلا مرة واحدة فى السنة، ولا تكون خصبة إلا نصف أيام الشهر، وتدخل سن اليأس فى الخمسين من عمرها، لا تكفى الرجل الذى لديه القدرة على الإخصاب، حتى وهو ابن مائة سنة. لذا تضطر المدنية إلى فتح أماكن العهر والفحش.

ثالثا : قضايا الميراث :

نذكر هنا مسألتين فى الميراث تبين عجز المدنية الحديثة، إزاء إعجاز القرآن، وهما مثالان من ألوف الأمثلة، التى تثبت مدى الظلم والإجحاف، فى الحقوق المدنية للحضارة الحديثة، والتى تخالف أحكام القرآن.

المسألة الأولى :

إن الحكم القرآنى : {فللذكر مثل حظ الأنثيين} [النساء، ١٧٦] محض العدالة، وعين الرحمة فى الوقت نفسه.

نعم إن ذلك الحكم عدالة، لأن الرجل الذى ينكح امرأة، يتكلف بنفقتها، كما هو فى الأكثرية المطلقة. أما المرأة فهى تتزوج الرجل وتذهب إليه، وتحمل نفقتها عليه، فتلاقي نقصها فى الإرث .. ثم إن الحكم القرآنى رحمة، لأن تلك البنت الضعيفة محتاجة كثيرا شفقة والدها، وعطفه عليها، وإلى رحمة أخيها ورأفته بها. فهى تجد - حسب الحكم القرآنى - تلك الشفقة عليها من والدها، وعطفه دون أن يكدرها حذر. إذ ينظر إليها والدها نظرة من لا يخشى منها ضررا، ولا يقول بأنها ستكون سببا فى انتقال نصف ثروتى إلى الأجانب والأغيار فلا يشوب تلك الشفقة والعطف الأبوى الحذر والقلق.

ثم إنها ترى من أخيها رحمة وحماية لا يعكرها حسد ولا منافسة، إذ لا ينظر إليها أخوها نظر من يجد فيها منافسا له، يمكن أن تبدد نصف ثروة أبيهما، بوضعها في يد الأجانب. فلا يعكر صفو تلك الرحمة والحماية حقد وكدر. فتلك البنت اللطيفة الرقيقة فطرة، والضعيفة النحيفة خلقة، تفقد في هذه الحالة شيئا قليلا من ظاهر الأمر، إلا أنها تكسب - بدلا منه - ثروة لا تفنى من شفقة الأقارب، وعطفهم عليها، ورحمتهم بها. وإلا فإن إعطائها نصيبا أكثر مما تستحق، بزعم أن ذلك رحمة في حقها، أزيد من رحمة الله سبحانه، ليس رحمة بها قط، بل ظلم شنيع في حقها، ربما يفتح سبيلا أمام الحرص الوحشي، المستولي على النفوس في هذا الزمان، لارتكاب ظلم أشنع، يذكر بالغيرة الوحشية التي كانت مستولية على النفوس، في زمن الجاهلية في وأدهم البنات. فالأحكام القرآنية كلها تصدق - كما يصدق هذا الحكم - قوله تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} [الأنبياء: ١٠٧].

المسألة الثانية:

قوله تعالى: {فلأمه السدس} [النساء: ١١]. إن المدنية (وهي بلا ميم) - أي الدنية - كما قد أصبحت سببا لمثل هذا التظلم (المذكور في المسألة السابقة) في حق البنات، بإعطائها أكثر مما تستحق. كذلك تقترف ظلما أدهى وأنكى بحق الوالدات، وذلك بحرمانهن من حقوقهن، من الميراث من الابن المتوفى. لكن الشريعة الإسلامية تفرض لهن السدس.

نعم! إن شفقة الوالدة وحنانها، الذي هو ألطف جلوة من رحمته تعالى، بل ألذها وأجدرها بالاحترام، تعتبر أسمى وأكرم حقيقة من حقائق الوجود.. والوالدة، هي بالذات أكرم صديقة عزيزة وأرحم مضحية، بل إنها تضحي بدنياها وحياتها لولدها، بدافع من حنانها وعطفها، حتى أن الدجاجة التي هي في أبسط مراتب الأمومة، وتحمل بصيصا من تلك الشفقة، لا تتردد في الهجوم على الكلب، والصولة على الأسد، دفاعا عن فراخها، رغم خوفها وجبنها.

فحرمان الوالدة، التى تطوى جوانحها على مثل هذه الحقيقة العزيزة وإلى هذا الحد من تركة ولدها، ظلم مريع وعمل إجرامى، وإهانة بحقها وكفران نعمة، إزاء الحقيقة الجديرة بالتوقير، بحيث تهتز له عرش الرحمة. وفوق هذا فهو دس للسم فى الترياق النافع لحياة البشر الاجتماعية. فإن لم يدرك هذا وحوش البشرية الذين يدعون خدمتها، فإن الناس الحقيقيين الكاملين، يعلمون أن حكم القرآن الحكيم فى قوله تعالى: {فلأمه السدس} عين الحق ومحض العدل.

رابعا : قضية عمل المرأة :

يعتبر الإمام النورسى ذو سبق خطير، فى معالجته لقضية عمل المرأة، بروح العصر الحديث. حيث مازال كثير من الأئمة يتناقشون هل هو حلال أم حرام؟ ولكنه لم يدخل متاهات تلك المناقشات، بل إنه يقرر : إن عمل المرأة أحيانا يكون ضرورة، تفرضها ظروف الحفاظ على العقيدة، بدلا من أن تدفعها الحاجة إلى من يعينها فى أمور العيش، إلى الرضوخ لسيطرة زوج نشأ على تربية غير إسلامية، واعتاد على الإكراه والفساد، مما قد يبعدها عن أصول دينها، أو ممارسة عقيدتها بحرية.

ولكنه يقيد خروج المرأة للعمل بشروط منها :

- أن يكون ذلك فى حدود الاحتشام وعدم التبرج، التزاما بحدود الشريعة الطاهرة.
- أن يكون خروجها للعمل للضرورة التى تبيحها حدود الدين.
- ألا يتعارض ذلك العمل مع احتياج بيتها وأولادها لها.

ويعيب خروج المرأة على نظام المدنية الحديثة فيقول :

- إنها أضلت النساء بخروجهن من بيوتهن، فعليهن العودة إليها.
- لقد أطلقت المدنية السفيهة النساء من أعشاشهن. وامتهنت كرامتهن. وجعلتهن متاعا مبذولا، بينما شرع الإسلام يدعو النساء إلى أعشاشهن رحمة بهن. فكرامتهن فيها، وراحتهن فى بيوتهن، وحياتهن فى دوام العائلة، فالطهر

زينتهن – والخلق هيبتهن – والعفة جمالهن – والشفقة كمالهن – والأطفـــال لهوهن. ولا تصمد إزاء جميع هذه الأسباب المفسدة إلا إرادة من حديد.

- إذا تأنث الرجال الســـفهاء بالهوســـات، وترجلـــت النســـاء والناشـــزات بالوقاحات، فهذا معناه اختلال المجتمعات !
- كلما دخلت حسناء فى مجلس تسود فيه الأخوة، أثارت فيهم عروق الريـــاء والمنافسة والحسد والأنانية، فتتنبه الأهواء الراقدة.
- إن تكشف النساء تكشفا دون قيد أصبح سببا لتكشف أخلاق البشر الســيئة وتناميها.
- هذه الصور التى هى جنائز مصغرة، وأموات مبتسمة، لها دور خطير جـــدا فى الروح الرعناء للإنسان المتحضر. بل إن تأثيرها مخيف مرعب: فكما أن النظـــر إلى جسد امرأة نظرة شهوانية، دليل على دناءة النفس وخستها، كذلك النظر بشهوة إلى صورة جميلة لحسناء ميتة محتاجة إلى الرحمة، يطمس مشاعر الـــروح السامية.

وفى ختام تلك الجولة نسجل تحية تقدير وإعجاب إلى نظرة الإمام النورسى للمرأة، النابعة حقا من روح الشرع، وإلى كيفية صقل المرأة وجدانيا، لتقوم بدورهـا فى يقظة المجتمع الإسلامى. وإلى معالجته لبعض قضايا المرأة التى يثيرها الغرب دائمـا، لإثارة شحناء المرأة المسلمة وتمردها على شريعتها، فيبين الشيخ سعيد النورســـى: منابع الرحمة والعدل فى أحكام المولى العلى القدير، صيانة للمرأة، وحرصا عليها، مما يفجر ينابيع الحب فى قلب كل امرأة مسلمة، تجاه شريعة دينها السمحاء التى تحنـــو عليها بحكمة وصفاء، لترتفع بها إلى عنان السماء.

الخاتمــة

فى نهاية المطاف : ألوذ برحاب الإسلام، معتزة بانتسابى إليه، أفخــــر بمــا حبانى به من عزة وكرامة وحرية، التى تزخر بها ينابيع الشريعة الإســـلامية، حيــث شقيت النساء فى العصور الســالفة، بدون ارتشاف رشفة من تلك اليـنابيع الســـامية، المتدفقة بمعانى الحرية الحقيقية.

وباعتزازى هذا بعقيدتى، أرد كيد الأدعياء فى نحورهـــم، وأوجــه تلــك الكلمات لدعاة تحرير المرأة تحت دعاوى الحضارة الحديثة :

● أقول لهم من من نساء العصر الحديث، وفى خضم الحضارة الغربية الحديثــــة، استطاعت أن تحى حضارة بأكملها من العدم، بدون أى مـــورد مـــن مـــوارد الثروة الاقتصادية، مثل السيدة هاجر .. فقد تركها الخليل إبراهيم فى صحــراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، وبدون أى معين غير اليقين بالله، وتعاليم الديـــن الحنيف، ومعها طفل رضيع لا حول له ولا قوة. بل على العكــس يشــكل فى عنقها أمانة خطيرة، يستثير فيها كل معانى الأمومة السامية، وهو على وشــــك الهلاك من العطش، فاتجهت إلى الله بكل تضرعاتها، مع سعيها الجاد (بين الصفـا والمروة) موقنة أن الله لن يضيعهما أبدا، لأنه وعد عبـــاده المؤمنـــين بذلـــك، ووعده الحق. ففجر لهما الماء، وأوكل إليها مهمة تنشئة نبى، وعمـــران مكـــة، وإنه لأمر جد خطير، لا تقدر عليه العصبة من الرجال فى عصرنا الحاضر.

● وأقول لهم من من نساء العصر الحديث، تستطيع أن تقوم بما قامت به الســـيدة خديجة من حماية أمة محمد، وهى فى محنتها فى شعاب مكة، وحمايـــة الدعـــوة فى مهدها بمالها ونفسها وروحها. تلك السيدة التى ندين لها بالفضل العظيـــم، فى مشاركة الرسول ﷺ أولى تبعات الوحى، وما صحبه مـــن زلزلـــة نفســـية، فوقفت تسانده، وتشد أزره، وتثبت فؤاده، بكلمات حكيمة تدل على عمـــق علمها، وسعة خبرتها، ودعمت ذلك عمليا، بالذهاب إلى ابن عمها ورقة بـــن

نوفل، لتجمع البرهان النظرى مع العملي. ولولا مكانتها الاقتصادية فى مكة، وعظمة يقينها وإخلاصها، لنجحت خطة الكفار فى القضاء على الإسلام، بالحصار الاقتصادى.

●وأقول لهم : كم من نساء العصر الحديث أنجبن رجالا عظماء، برعوا فى فنون الفروسية والفلك والطب والرياضيات، والفقه وأصول الدين، وباعوا أنفسهم لله، وأخذوا يجوبون الأرض إعلاء لراية الحق، وتحرير البشرية مما تكابده من عبودية الأهواء والأطماع، ونشرا لتعاليم ومبادئ سامية، وعلما يقينيا خاليا من الشرك والبدع، وتحرير العقول من أسر الجهالة والضلالة. والوقوف تجاه القضايا العالمية، موقفا عادلا، مبنيا على أسس متينة من العدالة والحرية والمساواة.

هؤلاء هن النساء المسلمات حقا، اللاتى يفخرن بانتمائهن للإسلام ويفخر الإسلام بانتمائهن إليه. وعلى أيديهن تربت أجيال، عرفت معنى النبل والتضحية والإيثار، والجهاد دفاعا عن الأرض والشرف والكرامة. أجيال رفعت راية الإسلام عالية خفاقة، على أكبر أمة وأعظم حضارة شهدها التاريخ. أجيال لقنت البشرية أجمل المعانى، وأخذت بيدها إلى مدارج الروح والنور والحق، أجيال أرست معالم الحضارة الحقيقية. وإليها يرجع الفضل فى انتشال أوروبا من عصور الظلام التى كانت تعيشها، حيث تلقت العلم الفياض فى جامعات كريت وقرطبة وصقلية، التى أنشأها العرب بعد فتوحاتهم.

إننى كلما أطلعُ على جانب من عظمة النساء المسلمات، وجهادهن فى منصرة دعوة الإسلام، بالقلب والروح والعقل والمال والأبناء، وكل غال ونفيس، أشعر بعظمة ذلك الدين القيم فى تربية النفوس، على أروع المبادئ وأسمى القيم، وأقول بينى وبين نفسى : "يا ليتنى كنت معهن فأفوز فوزا عظيما، أو يا ليتنى أحذو حذوهن فأنال نصيبا من رفعتهن وحريتهن، التى تشرئب إليها الأعناق، وتطمح إليها النفوس".

●فالسيدة عائشة ظلت تنقل بدقة متناهية آثار السنة النبوية، لمدة نصف قرن بعد وفاة الرسول ﷺ. ودونت (٢,٢١٠) حديثا، وكانت تمتلك موهبة غير عادية، لاستنباط الأحكام الشرعية من تلك الأحاديث .. ويقال : إن أحد أرباع أحكام الشريعة الإسلامية، يعتمد على ما روى عنها. وكانت بمقدرتها العلمية وتفقهها فى الدين، موضع ثقة الجميع. وعبد الله بن عباس الذى كان من أكثر أصحاب الرسول غزارة فى العلم، ويلقب "بحبر الأمة" قد تتلمذ على يديها، بالإضافة إلى آخرين من الصحابة والتابعين. ويقول أبو موسى الأشعرى : "ما أشكل علينا – أصحاب رسول الله ﷺ – حديث قط، فسألنا عائشة، إلا وجدنا عندها منه علما"*.

●والشاعرة الخنساء التى لم تستطع أن تتحمل صدمة مقتل أخويها، أيام الجاهلية وهى فى عمر الشباب، زودها الإسلام بالقدرة على التضحية والفداء بأبنائها فى سبيل الإسلام. لقد حملت أبناءها الأربعة وهم فى ريعان الشباب، على المشاركة فى حرب القادسية، حيث استشهدوا بعد خوضهم معاركها الضارية. وقد تلقت نبأ استشهادهم بما يليق* بعظمة الرسالة التى تؤمن بها، فقالت : "الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم" . وهى فى سن أحوج ما تكون فيه إلى عون أبنائها ..

●وحين خرج الإمام البخارى لطلب العلم، فى الرابعة عشرة من عمره كان قد اكتسب كفاءة تعليمية، مكنته من التزود بمزيد من العلم والمعرفة، عن كبار العلماء فى عصره، وذلك بفضل التوجيه والتعليم، الذى تلقاه فى مقتبل عمره على أيدى والدته وشقيقته. ويذكر أن الإمام ابن الجوزى تلقى تعليمه الابتدائى على يدى عمته.

---

* صحيح الترمذى، أبواب المناقب. فضل عائشة (ى) ٢٥٧/١٣.

* الزركلى الأعلام ط : ٤ (بيروت ١٩٧٩) ٨٦/٢.

من أجل ذلك حرر الإسلام المرأة، لإرساء دعائم النهضة الإسلامية علـــى أسس متينة من العلم والعقيدة. فأين نحن من تلك المكانة السامية ؟!

ولا يسعنى فى نهاية هذا البحث إلا أن أتوجه بـــالنصح إلى نفســـى، وإلى النساء المسلمات فى كل مكان، بأن نعتصم بالإسلام لنحيى به موات نفوسنا، ولحقق الحرية الحقيقية التى نصبو إليها .. وإنه لشرف لو تعلمن عظيم.

والحمد لله رب العالمين ..

خديجة النبراوى

المراجع

(١) * المرأة المسلمة بين حقيقة الشريعة وزيف الأباطيل.
د. هاشم السعيد شريف. دار المعرفة الجامعية.

* المرأة فى التصور الإسلامى. عبد المتعال محمد الجبرى. مكتبة وهبة.

* المرأة المصرية بين الماضى والحاضر. أحمد طه محمد. مطبعة دار التأليف.

* المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية. (وحيد الدين خان) المفكر الهندى الكبير. دار الصحوة للنشر.

(٢) دائرة المعارف البريطانية ١٩/٩٠٩.

(٣) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس. الإصحاح ١١، الفقرة ١٠.

(٤) المرأة فى التصور الإسلامى [من ضمن مراجع (١)]، ص١٣٨.

(٥) ص٤٧٤ : ٤٩٧ الطبعة الثانية - ترجمة المرحوم الأستاذ عادل زعيتر.

(٦) خديجة بنت خويلد. عبد السلام العشرى. محمد عبد الغنى حسن.

(٧) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية [من ضمن مراجع (١)]، ص١١١ : ١٧٧.

(٨) صحيفة انديان اكسبريس ١٤ يناير ١٩٨٧. وهى كاتبة استرالية جريئة.

(٩) جريدة تلغراف (كلكوتا) ١٨ أكتوبر ١٩٨٧.

(١٠) صحيفة انديان اكسبريس ١٤ يناير ١٩٨٧.

(١١) المرأة فى التصور الإسلامى [من ضمن مراجع (١١)]، ص٥٥.

(١٢) تطور النظرية التربوية. الأستاذ صالح عبد العزيز.

(١٣) د. عائشة عبد الرحمن : المفهوم الإسلامي لتحرير المرأة. جامعة أم درمـــان الإســلامية. محاضرة بتاريخ ١٩٦٧/٢/١.

(١٤) أبو عبد الله إسماعيل البخارى : صحيح البخارى. كتاب الغزوات باب غـــزوة تبــوك. حديث كعب بن مالك.

(١٥) ســيرة ابـــن هشـــام. مكتبــة صبــــح. القـــاهرة ١٩٦٣/١٣٨٣ جــــــ٢ : (٤٨٢-٤٨٣)

(١٦) سيرة ابن هشام : جـ٤ (٣٩-٤٠).

(١٧) ابن سعد : جـ٨ (١٧٨).

(١٨) محمد الغزالى : خلق المسلم. دار الكاتب العربي القاهرة. والرواية عن أحمد بن حنبل.

(١٩) ابن كثير "السيرة النبوية" ٣٨٦/١.

(٢٠) الترغيب والترهيب للإمام المنذرى. جزء٣. ص ٥٥ (باب حقوق الزوج على الزوجـة). دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

(٢١) د. سعد الدين السيد صالح. دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع "انتهى أحق المسـلمة .. فقد خلطوا عليك الحقائق !!".

(٢٢) فقه السنة. الشيخ السيد سابق. دار الريان للتراث. مجلد (٢) الجــزء الســادس بــاب وجوب استئذان المرأة قبل الزواج.

(٢٣) **J.M. Roberts, The Pelican History of the World (New York) p. 334.**

نقلاً عن (وحيد الدين خان) من مراجع رقم (١) ص٥٤.

(٢٤) جريدة ستيتـــمان (دلهى الجديدة) ٢٦ إبريل ١٩٨٦ (نقلاً عن المرجع السابق)

(٢٥) تفسير بن كثير الجزء الأول، ص٤٥٤. طبع بدار إحياء الكتب العربية.

(٢٦) تفسير بن كثير الجزء الأول، ص٤٦٥ (المرجع السابق).

(٢٧) هذا الحديث والسابق من صحيح البخارى – كتاب العلم – باب عظة الإمام النساء وتعليمهن.

(٢٨) ابن سعد : جـ٨ : ٣٣٥ والحافظ أبو نعيم الأصبهانى "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" مكتبة الخانجى بمصر ١٩٣/١٣٥١. جـ٢ : ٦٢.

(٢٩) ابن سعد (المرجع السابق).

(٣٠) فقه السنة (مرجع رقم ٢٢) مجلد (١) جزء (٤) باب حج المرأة.

(٣١) زاد المعاد فى هدى خير العباد. للإمام ابن القيم. الجزء الرابع. باب حكمه صلى الله عليه وسلم فى خدمة المرأة لزوجها، ص ٣٢.

(٣٢) فقه السنة (مرجع رقم ٢٢) مجلد (٢) باب العزل وتحديد النسل.

(٣٣) أستاذ المرأة. تأليف الشيخ محمد بن سالم البيحانى. من مطبوعات إدارة إحياء التراث الإسلامى بدولة قطر (١٤٠٨هـ–١٩٨٨م)، ص١٤٦.

(٣٤) صفوة التفاسير. سورة المجادلة جزء قد سمع (١٨). محمد على الصابونى. مكة المكرمة – جامعة الملك عبد العزيز. ص ١٥٦٥.

(٣٥) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية [من ضمن مراجع مجموعة (١)] ص٢٢٢ (وضعية الرجل إزاء المرأة).

(٣٦) الترغيب والترهيب للإمام المنذرى. دار الكتب العلمية – بيروت – مجلد (٣) باب القضاء وغيره، ص١٥٤. الحديث رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما.

(٣٧) سنن النسائى، كتاب النكاح، ٦٨/٦.

(٣٨) الترغيب والترهيب (مرجع ٣٦). باب ترغيب المرأة فى الوفاء بحق زوجها وطاعته. مجلد (٣) ص٥٦.

(٣٩) سنن ابن ماجه. كتاب النكاح ٥٠، باب حسن معاشرة النساء ٦٣٦/١.

(٤٠) سنن أبى داود. كتاب الطهارة. دار إحياء التراث العربى (بيروت، ب.ت) ٦١/١.

(٤١) صحيح البخارى. كتاب النكاح. باب الوصاة بالنساء (فتح البـارى شـرح البخـارى ٢٠٦/٩-٢٠٧).

(٤٢) وحيد الدين خان (من مراجع رقم [١]) ص١٧٥.

(٤٣) هذا الحديث وما قبله مأخوذ من فقه السنة للشيخ سيد سابق. (مرجع رقم ٢٢)، مجلـد (٢) باب نشوز الرجل ص٤٥٠. الجزء (٧).

(٤٤) هذا الحديث منقول من المرجع السابق. جزء (٧) باب "الخلع" ص٤٣٦.

(٤٥) فقه السنة (مرجع رقم ٢٢) مجلد (٢) جزء (٧) ص٤٨٢ "باب الحضانة".

(٤٦) هذا الحديث والذى بعده من المرجع السابق نفس المجلد والصفحة.

(٤٧) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية. مـن مراجـع رقـم (١) ص١١١ : ١٥٢ (نتائج الحضارة الحديثة).

(٤٨) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى فقه السنة للشيخ سيد سابق (مرجع رقم ٢٢) مجلد (٢) الجزء السادس (الزواج).

(٤٩) زاد المعاد، ج٤ ص٤ (مرجع رقم ٣١).

(٥٠) فقه السنة (مرجع رقم ٢٢) مجلد (٢) الجزء السادس ص١٦٩ (زواج المتعة).

(٥١) كليات رسائل النور للإمام الجليل بديع الزمان سعيد النورسى. دار سوزلر للنشـر ١٠ ش يوسف عباس - مدينة نصر - القاهرة.ت : ٢٦٣٦٦٨٤ (وهى تسعة مجلدات).

(٥٢) موسوعة "تحرير المرأة فى عصر الرسالة" دراسة جامعة لنصوص القرآن الكريم وصحيحى البخارى ومسلم. للأستاذ عبد الحليم أبو شقة دار القلم للنشر والتوزيع "دبى" "وهـى فى ستة أجزاء"

فهرس

الموضوع	رقم الصفحة

Commentary

At the end of this presentation we would like to extend our appreciation and admiration to Imam Nursy's view of women. Such view that were guided by the rules of the Shariaat and helped in shaping the morales of the women as that it helped them to play their role in arousing the Islamic society. That view helped in solving some of women's problems which made by the West to provoke the moslem women and to urge them to get angry at the rules of their Shariaat.

Imam Nusry demonstrated the sources of mercy and justice in the commands of Allah almighty that aim to protect women as well as to cure about them. Such mercy and justice fill the hearts of women with love to the rules of Shariaat which is favoring them and positioning them a highly respectable rank.

- Women who go out in a shameless outfit –unislamic dress– stimulate the bad characteristics of humanbeing and make it even worse.
- The above examples shed on the destructive influence of modern civilization, on the spiritual life of the so called civilized society.

- The woman has to follow the rules of Shariaat in her outfit.
- She may seek paid work only out of necessity described by the rules of Shariaat.
- Her work obligations must not conflict with the interests of her family and her housekeeping duties.
- Imam Nursy blamed on modern civilization saying: "The modern civilization misled the woman by inviting her to desert her house. The woman should get back home."
- Islam invites women to settle in their houses where they find their dignity and comfort. Also, their lives consist in the support of their families–purity is their ornament, good manners are their esteem, chastity is their beauty, mercy is their perfection , and children are their amusement . While Islam is calling for all that, modern civilization invites women to desert their houses, and it makes them cheap.
- Men who want to be like women and women who want to be like men, they will bring about a sick society.
- Whenever a beautiful woman enters into a brotherly friendly gathering, she would automatically stir amongst them feelings of selfishness and jealousy.

the sake of her son out of her inner sense of mercy and compassion. Even a hen, the simplest form of a mother, doesn't hesitate to attack a dog or a lion to protect and defend her young chicks inspite of her fear and basic cowardice.

To deprive a mother who possesses this reality within her from inheriting her son, is a great injustice and a crime committed against her. It is utter–ingratitude directed against this reality worthy of respect. It's an imprisonment of human society. If those who pretend to be serving this mother do not realize their mistake, then there are always those righteous people who know and believe that the Quranic rule "his mother inherits one sixth" is pure justice.

2.1.4 The Issue of Woman's work

Imam Nursy has an exceptionally preceding view of the woman's right to seek a paid work avoiding all discussions of what is lawful or unlawful around this matter he said: "A woman sometimes has to seek a paid work that might help her to live according the rules of the Shariaat, particularly if she has a rude husband with improper understanding of Islamic rules whose behaviour would hurt her and or curbe her freedom to practice rituals of her religion." He restricted that right to seek paid work to certain situations:

doesn't feel that she will dissipate half his father's fortune into the hands of a stranger. This tender sweet girl may lose a little on surface value but she gains the unending treasure of all her relatives compassion and affection. Had she been given more than that share under the pretext of being more merciful to her than Allah, she would have undergone great injustice from all those around her, evoking jealousies such as those which caused people before Islam to bury their baby girls alive. Truly all Quranic laws realize the verse which says: "We have sent you only for mercy of all creation." (Al Anbiya: 107).

2.1.3.2 The Second issue

The Quranic verse (Al Nisaa : 11) declares: "His mother gets one sixth." Modern civilization blamed for all the injustice mentioned in the first issue we have discussed concerning giving a female more than her rightful share in an inheritance, commits a worse injustice by depriving mothers from their right of inheritance when their son dies. However, Islamic law gives them 1/6 of the inheritance.

A mother's mercifulness and compassion is one of Allah's sublime gifts and the sweetest most respectful truth from the truths of creation.

A mother is the most generous friend and the most merciful one who sacrifices her life and her entire world for

2.1.3 Third: The issue of inheritance

We will mention here two issues concerning inheritance which will reveal the deficiency of modern civilization in contrast with the wondrous inimitability of the Quran. These are only two examples from among thousands of examples which prove the injustice of civil rights in modern times which are contrary to the laws of the Quran.

2.1.3.1 The first issue

The Quranic ordnance which says: "A male receives twice what a woman receives" (Al Nisaa : 176) is the ultimate justice and the essence of mercy at the same time.

Indeed this law is just because when a man marries, he provides for his wife in the majority of cases. When a woman gets married she becomes her husband's responsibility. He supports her financially; therefore, she receives less inheritance.

The mercifulness in this law is that this weak girl needs her father's compasion & her brother's mercifulness and tenderness. She receives all this mercy and compassion without fear or needless caution. Her father doesn't feel that she will cause half of his fortune to move into hands of strangers. He is free of worry and caution endowing her with his affection and compassion. Her brother gives her his protection without any feelings of envy or competition. He

their social habits. People in rural areas exert a lot of physical effort to earn their living and women usually join in this kind of work where they may have to expose some parts of their rough limbs during work. However this doesn't stimulate base feelings among the men at work. That is because elements of corruption and unemployment in rural areas are less than one tenth of those found in urban areas.

2.1.2 Second: The issue of polygamy

Modern civilization doesn't accept polygamy and considers this Quranic law to be unwise and contrary to the better interests of humanity. Had the wisdom behind marriage been confined to the pleasure derived from it, matters would have been contrary to the way they are. It is a fact proven by all animals and reproductive plants that the wisdom behind marriage is reproduction. As for the pleasure derived from the act itself, this is a partial recompense granted by the Divine Mercy to motivate the completion of this mission. Undoubtedly a woman who can give birth once a year only, and who is fertile half the number of days in a month and who reaches the age of menopause at 50 years of age cannot suffice the man whose fertility can extent to the age of one hundred. Modern civilization has to provide for that by allowing for the presence of places for prostitution.

soul. However if one of those women should expose any part of her body other than her face, she might stimulate base desires in some people when the constraint of decency was removed by displaying parts of the body unrelated to those parts normally seen.

2.1.1.4 Fourth Wisdom

It is universally known that every nation and all people desire an increase in their progeny. The Holy prophet PBUH said: "Get married, and reproduce, for I will show you off in pride to all the nations on the Day of Judgement." However the removal of the veil and opening up the way for women to display their beauty causes a decrease in the rate of marriage and then reproduction. For a young man, no matter how dissolute he is, would want his wife to be chaste and pure. He wouldn't want her to be immoral and banele like him. As a result, he prefers to remain a bachelor leading a corrupt life. Unlike the man, a woman can't choose the person she wents to marry specifically.

Our country can't be compared to the countries of Europe. In those cold regions where people are rather frigid, people may not be too much affected by women's display of their charms. Their reactions wouldn't exceed the limits as would the case be in the hotter regions where people are easily stimulated and over indulgent. People leading an urban life shouldn't imitate those living in the rural areas in

man. A fortunate woman is one who finding her husband faithful, holds on to faith and piety out of fear of losing her honest husband in eternal life.

2.1.1.3 Third Wisdom

A family life derives its happiness and continuity from the mutual faith of the married couple, the due respect and sincere affection exchanged between them.

However, if a woman displays her charms to others, she ruins this trust and mutual respect. One would find that nine out of ten women who display their charm run into men who are better looking than their own husbands, while one out of the ten finds someone less handsome than her own husband to display her charms to him. Likewise one out of twenty men finds anyone less beautiful than his wife. The rest find other women more beautiful than their own wives. This fact leads to the development of a nasty ugly feeling within one's soul. Moreover, it causes the loss of true love and respect.

It is normal that a person doesn't instinctively carry base feelings towards those he cannot marry, like his sister for example. Their countenance evokes feelings of tenderness and mercifulness and legitimate affection because of the relationship attached to these features. These noble feelings put constraints on the more base tendencies of the

natural disposition of women from humiliation and baseness, they being the very element of mercy and compassion and the dear companions of their husbands in the hereafter.

2.1.1.2 Second Wisdom

The strong bond and deep love between a man and a woman do not spring from the needs of earthly life alone, because a woman becomes man's companion in this life and the next eternally. For this reason she shouldn't attract anybody's attention other than her husband's, who is to be her eternal companion. She should be careful not to make him worried, angry, or jealous.

A faithful husband extends his love for his wife throughout her life. He endows her with sincere love and respect, rather than a short lived physical love confined to the time of her beauty and youth. His love for her lasts to the time when she ages and her beauty fades away until she becomes his eternal companion. Likewise, a woman should dedicate her love and charm to her husband alone as is humanly right. Otherwise she'll lose lot and gain little.

What is lawfully right is for a man to be suitable to the woman whom he'll marry. Each should be suitable for the other especially in terms of faith. A husband who tries to live up to the degree of faith his wife has, becomes a faithful

way. These women instinctively desire to be enveiled to avoid those reasons or any other accusations from their husbands. We find that the elderly among them are more intent on wearing the veil than others.

Not more than two or three out of ten women are young & beautiful. It doesn't bother them to expose their beauty. It is well-known that a person shies away from the looks of someone who doesn't love him. If we assume that a beautiful maid would wish to be seen by two or three of people who are strangers to her, she will definitely be bothered and unnerved by the looks of seven or eight of them. She may even abhor it. Because of her tender, sensitive, easily affected nature, she will detest these wicked looks, unless her conduct has become corrupt and cheap. These wicked looks have a poisonous physical effect – as has been proven by those who were exposed to them. We even hear of many women in Europe - the land of display and exposition of women – who complain to the police because of those who follow them around with their poison. They declare that those bastards imprison them with their scrutinizing looks.

Therefore, when modern civilization removed the veil and widened the scope for the display of women's charm, it was moving against the basic human nature. Quran commanded that the veil should be worn to protect the

2 Part Two
Issues Concerning Women

2.1.1 First: The issue of wearing a veil

In surat Al Ahzab : 59th verse Allah Almighty ordered women to wear a veil. While in the meantime false civilization opposed this diverse command. It considered wearing a veil to be a restrictive matter rather than an instinctive one. We will explain here the wisdom behind this Quranic command which proves that the veil is an instinctive necessity for women and that the contrary is moving against her natural instinct. We will mention here four of these wisdoms or reasons:

2.1.1.1 First Wisdom

Since women have been created tender and weak, they find themselves in need of a man to protect them and their children whom they prefer over themselves. They carry an instinctive fear of strange man. This fear initiates them to wear the veil in order not to expose themselves.

Then we find that approximately seven tenths of women are either old in age or ugly in looks, unwilling to reveal their gray hair or their ugliness. Within them they feel strong jealousy about their husbands of those who exceed them in beauty that they might be preferred to them. They may also fear that someone would slander them in any

being her enlightened, sincere compassion. These last and grow to the end of life. Loving her for these qualities causes the rights of this tender, weak creative to be protected especially when she's most in need of this protection : at the time when she loses her external beauty. As for the eternal recompense for this love which was based on her good conduct and compassion that protected her from being disobedient or sinful, it lies in turning her into that beloved, friendly, loving wife more beautiful than the nymphs of paradise & better ornamented. She would chat with her husband, remembering old events... Such was the promise of the most merciful and the most Beneficent and as he has promised, He will fulfill."

It is through this appeal of Imam Nursy to protect the spiritual rights of women that he sought to surround them with the protective effect of psychological security, guarding their femininity and opening up for them sublime, endless horizons in the place of having to compete over jobs and over a vanishing life. At the same time he induces man to look forward to what their wives will be like when they are rendered their grand prize in the after world.

All these wonderful concepts were at hazard of being lost in the middle of materialism and worldly strife. We badly need someone to arouse these concepts in our lives as did Imam Nursy a few years ago.

continuous companionship in endless time under the shade of a limitless life whose ties are those of respectful fatherhood, pure brotherhood, decent faithfully friendship – a life where a husband would say to himself : "My wife is my partner in life and my companion in eternal life. It's no problem that she's ugly or old because there will come a time when she will be eternally beautiful. Therefore, I'm ready to be ultimately faithful and compassionate and to sacrifice any thing for the sake of that eternal friendship." Thus a man can hold love and compassion for his old wife just as he would for the nymphs of paradise. Otherwise, a false deceptive friendship and companionship can only be followed by eternal separation and severance. An unfounded superficial friendship cannot produce anything but false mercy and false respect together with an animalistic compassion. The interference of personal interests and lusts can direct that mercy and respect from an earthly paradise into an insupportable hell."

Imam Nursy advises husbands saying "You should love your wife for being one of Allah's genial gifts of mercy. Don't you dare link your love for her with the tie of external beauty which will soon fade away, but rather with unvanishing beauty that glows more and more as time goes by – the beauty of good conduct deeply rooted in her femininity and mercifulness, the most sublime part of it

drive a woman to stand the hardships of a hard life without eternal recompense.

In conclusion, Imam Nursy doesn't want women to sell themselves cheaply when they don't find the religious, righteous man whose good conduct suits them perfectly. If they fail to find such a man, it is better for them to stay celibate than to spoil their chance at eternal happiness for the sake of a transient desire.

1.1.6 Sixth Principle

The call to protect the rights of women

Out of his concern for the realization of true liberation for women Imam Nursy continuously gave advice to men, as well as to women, to protect the rights of women, wives, daughters, sisters... In his call he didn't seek to simulate the appeals which seek to give women equal rights with men in holding jobs. Nursy's approach was to have man indulge women with mercy, compassion, tenderness, and love, these being the qualities that a woman's soul longs for a much as a flower longs for a few drops of dew. Therefore, Nursy says: "The spirit of family life cannot realize happiness except through the due, sincere, respect among all its members mixed with mercy and true compassion reaching the extent of sacrifice and preference of others over oneself. This cannot be realized except through faith in the existence of ever lasting relationships in eternal life and

- A woman shouldn't rush into a marriage under the effect of her emotions, psychological motives, or instinctive inclination. A woman might suffer the pains of pregnancy for almost ten months in return for ten minutes' worth of pleasure. Up and above that are the hardships that she undergoes for ten years to raise her child. If these sacrifices aren't motivated by a sublime goal. Then it is needless to make them.
- A woman shouldn't marry under the pressure of needing someone to support her weakness. It is better for her to earn a living than to place herself under the domination of a husband who has been raised in a non–Islamic atmosphere and has gotten used to coerce and corrupt. Shed might try to win his satisfaction by false pretense and by violating her religious duties and morals, which are the essence of her life here and thereafter.

She shouldn't marry out of her natural inclination to love and fondle children. European education which has replaced Islamic education these days causes one or two out of ten children to revere their mother, filling her register of deeds with good deeds because of the prayers they extend and the charitable deeds that they do. They even intercede Allah for her sake on the day of Judgement if they are righteous. Therefore this natural inclination and innate desire to love and fondle children shouldn't

of them helps push the others into hell fire by tempting one another into over indulgence in the vanities of modern life.

1.1.5 Fifth Principle

The necessity of choosing a competent husband

Imam Nursy declares that the basic foundation for women's liberation lies in the necessity of choosing a competent man to ensure their progression into wider scopes of efficacy and security in both this world and the next. A competent man is one who observes his wife's rights and becomes her companion in eternal life.

Nursy says: "Our times are unlike the ancient times. Contemporary European education has strongly set its foot in society to replace Islamic education for nearly half a century. A muslim man used to get married to protect himself from sinning. Islamic teaching motivated him to make his wife his eternal companion and the essence of his happiness on earth. Nowadays, we find this man, because of his European education, putting his weak and unfortunate wife under his continuous command. He confines for her for as long as she is young. He may even bring her more trouble and hardship than any relative rest, turning her life into a state of pain and misery." Therefore, Imam Nusry gave women the following advice:

ought to exert patience in hope that Allah might rectify her husband's ways when she expressed contentment and resignation to Allah.

- Fortunate is the woman who, when she finds her husband religious, clings to that religion in order not to lose her eternal mate, thus winning eternal happiness as part of worldly happiness. So unfortunate is the man who is subservient to his wife who had thrown herself into the lapse of idiocy, if he shares that kind of life with her without trying to save her. Islam obliges a man and his wife to advise one another along the path of righteousness.
- A wise man doesn't base his love for his wife on her external vanishing beauty that will not last for more than 10 years. On the contrary, Islam directs a man to base his love on the quality of mercy within her – that most beautiful and lasting quality. It is thus that his love for her grows, as she grows older and weaker. Not only will she be his mate in this transient earthly life, but she'll be his beloved companion in an eternal everlasting life. Therefore, a man and his wife should love one another with ever growing mercy and respect as they get older.

As for family life of people reared in the ways of modern civilized life, it's exposed to corruption and deterioration. Relationships in it are based on temporary companionship followed by eternal separation. Each one

1.1.4 Fourth Principle

Emphasizing that a woman's fortress is her family life.

Imam Nursy knew that there were secret undercover organization which worked hard to drive innocent, gentle women into devious, sinful ways. He realized that this hard blow to the Islamic nation was coming from that direction, so he said," The effective cure to save women from having their peace of mind spoiled in this world and the next and the only way to protect their sublime nature from being spoiled is by educating them within the context of all-encompassing Islam. That is because family life is a woman's paradise and her small world if she regulates it within the scope of Islamic regulations which involve the following:

- Should a woman upon witnessing betrayal and lack of fidelity from her husband, out of being stubborn, let go of her family duties which are based on faith and trust, she will upset the balance of this family entirely. It will be like an insurgence in the army.

A wife has to work hard to complement the deficiencies of her husband, correct his shortcomings to save him, being her eternal mate. Otherwise she'll lose on all fronts, if she tries to show off and befriend others, exposing herself. She ought to know that the who becomes unfaithful gets his punishment in this world too. So she

1.1.3 Third Principle

Women are as important and as effective as men

Imam Nursy finds heroism in women because of the great sacrifices that they offer without awaiting any reward or recompense, without hypocrisy or show. They are ready to sacrifice their own lives for the sake of their children. We find an example of the compassion of maternity and its merciful feelings in what a mother hen does when if attacks a lion and sacrifices its own life to protect its young chicks. As for the sacrifice offered by fathers, it's never offered without awaiting recompense. They ask for the reward or the recompense in numerous ways – the least amongest which is developing a sense of pride and feeling reputable.

Likewise, Imam Nursy noticed that the women of the village of Sao and the districts around it exerted a lot of effort in spreading the "messages of light " more actively and pleasurably than any man. That is because of the basic principle of mercy around which these messages revolve. Since women are the basic source of mercy theses messages were able to open up and enlighten the heart of these women. These hearts, the water of faith have ripened and have become more active than hearts of men.

Allah that the most profound lesson which is always renewed in my life was my mother's instructions, God bless her soul, and her spiritual lessons which settled in the depths of my inherent disposition. It was such that they have become like seeds within my body throughout my life which is now approximately eighty years of age. I'm fully convinced that the rest of the lessons which I had learned during those years were grown from those seeds. I truly witness the compassion, benevolence, and mercy which are the greatest truths in the the "messages of light" to be emanating from the deeds of that gracious mother; from her merciful ways and her spiritual lessons.

However, I see the mercy and tenderness inherent in motherhood being misused in temporary time. A mother doesn't think of what her son will reap of eternal treasures which are more precious than diamonds. She rather turns his face towards this world which isn't even worth a few pieces of glass then she shows mercy to her son on this side of the world – a harmful mercy that didn't encompass within its wings the true sincerity which envelops the actions that lead to eternity."

everlasting imprisonment in hell fire if they die of living a misguided life. At the same a woman's righteous son will ever provide his mother's soul with mercies after her death. This is due to the fact that all the righteousness of her son during his life will be registered likewise in the record of her deeds. Her child will also be her blessed companion in the hereafter interceding for her sake whenever possible instead of complaining or invoking Allah against her if she failed to use her inborn mercy and didn't save her child from eternal imprisonment in hell. Her child would complain saying,"Why didn't you strengthen my faith? Why did you cause me to perish thus?"

1.1.2 Second Principle

Instigating a woman's sense of pride in her role in life:

There are a lot of women who neglect their basic role in life: motherhood in all its sublime meaning. Their main concern becomes the pursuit of prestigious positions and fame during their life time. That is why Nursy placed such importance on this basic role; at the same time he sought to organize that role.

He said: "Man's first tutor and the person whose teachings affect him most are his mother. I will explain this meaning which to me is a very definite feeling : I swear by

approach which he deemed most effective. This approach awakens the essences of the creed deeply inborn within them. Once illuminated they would bring light to themselves and those around them.

1.1 Nursy's principles to realize woman true liberation

1.1.1 First Principle

Bringing out the potential energy found in women

Bringing out the potential energy found in women, since he considered them to be the essence of mercy and tenderness, he worked hard to polish this element to produce 'ts brightest manifestation. It's as though he were saying :- "The fact that a woman sacrifices here life to protect her child from perishing, awaiting no recompense for her instinctive self sacrifice, proves that women possess a refined, sublime, heroic nature. This nature enables them to save their souls in this life and the hereafter. However, destructive forces impede this precious righteous nature from being manifest or moving in the right direction."

Therefore, Nursy worked hard to bring out the potential capacity of mercy and tenderness in women, making use of these capacities in raising their children in accordance with Islamic principles, to protect them from

Therefore, Imam Nursy directed, his efforts towards saving women from falling into the mire of failing to hold on to virtue or to Allah's strong chain and righteous path. This was what distinguished Nursy's call time after time. He didn't put any constraints on women's daily activities as long as these activities began and ended with Allah's satisfaction and were protected by the code of Islamic rules which keep them from sliding into worldly mires or failing to reach everlasting happiness in eternity.

Nursy's mean of liberating women was, therefore, distinctive, making the essence of religion meet with the requirements of modern development. He emphasized the importance of women's role in life and the necessity of positive participation in playing a constructive role that suits their status and at the same time doesn't contradict their basic nature which is created from the element of mercy – that element which makes them instinctively donate without awaiting any recompense. They are motivated by their sincere devotion to Allah, seeking. His presence.

Should these enlightened words be forgotten, women will find themselves lost in the vast sea of materialism. They will suffer and so will the entire human race, if this is the case.

The principles which Nursy used to propagate his call for the liberation of women were in using the spiritual

1 Part One

Nursy and Women's Liberation

What are the basic characteristics of Imam Nursy's approach to the liberation of women ? Unlike the other groups which call themselves the liberators of women, which, I believe, eventually enslave women to their egoistic demands and busts and to the bonds of their jobs and employers, Imam Nursy called for true liberation of women from their egoistic demands and from their bad deeds. He sought to save women from the pressure of being responsible for so many duties.

In this respect Imam Nursy was following the guidance of the Quranic verses (Al Zummar – 29) which say : "Allah gave an example of a situation where a man has to report to one master and the situation where a man has to report to a group of masters who are in dispute. Would the two situations be similar ?". When a woman abandons here essential role in life, she will be in a situation like that of the man in the Quranic verse, who serves a group of masters in dispute and each of them wants to be the only master. But when a woman surrenders herself to her hard-Allah Almighty – She will be protected from the destructive worldly pressures incorporated in fighting over worldly possessions and positions.

Imam Nursy's View of Woman

Each imam has his own special key with which he opens up the hearts of his lovers. The key that opened up my heart to the love of imam Nursy was his view of women. He was the only person who made me feel in peace and happiness with my being a woman. I experienced that feeling on hearing his caring expression of his view of women.

To me, all the movements which call themselves reformers or liberals, who believe in the equality of man and woman, do not offer any real rights to women. On the contrary they place more burdens on women by pushing them to fight over the false glamour of worldly possessions.

Imam Nursy regarded women highly as tender and compassionate beings whose existence consists of the spreading of mercy amongst humanity. He warned women against abandoning that great function of being a source of mercy. Otherwise, the effect of abandoning such a role would be more dangerous the destruction caused by a nuclear war.

BEDIUZZAMAN SAID NURSI'S VIEW OF WOMAN

BEDIUZZAMAN SAID NURSI'S

VIEW OF WOMAN

by

KHADIGA AL-NABRAWY

